كعك محلّي

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: كعك محلّي

اسم المؤلف: د. مروة رمضان عامر

التدقيق اللغوي: د.ياسر عوض

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: عمر اسامة

رقم الإيداع: ٢١٤١٣ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٢٩٣-٦-١

مسار للنشر و التوزيع


ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

كعك محلّي





إهداء

إلى أعز الناس أبي الغالى وأمي وزوجي وابني..

دائماً وابدًا .

هناك في ذلك الحي الفقير، وبأحد شوارعه القديمة الضيقة، وقف عم (فتحي) مبيض النحاس بجسده النحيل المنحني، يفرك بقدميه (التشت النحاسي)، ملابسه بالية مهلهلة، مظهره الرّثّ ينطق بما هو عليه من فقر وبؤس، أطفاله الحفاة يلعبون بجواره في كل ركن، يملؤون الأرضَ بقاذوراتهم والأفقَ بصراخهم، عم (فتحي) رجل في الخمسين من عمره، تزوج سيدة تُدعى (قشطة) وهو في الأربعين من عمره، وأنجب منها الأولاد والبنات، عم (فتحي) قصير القامة، هيكله ضعيف، ضغط الحياة أنهك قواه، مقعّر الخدين، يُطلق لحيته البيضاء بين الحين والآخر، ملامح وجهه الأسمر تنطق بملحمة الحياة، يتوقف بين الحين والآخر والعرق ينهمر على جبينه ليلتقط أنفاسه، وليسترسل في سرد حكاية بيت (أم فوزية) للخواجه (لوقا) المؤرخ اليوناني الجالس أمامه على كرسي خشبي، ماسكا بكتابه وقلمه ليسجل ما يقوله عم (فتحي).

(لوقا) مصرى يوناني، وفد جدُّه إلى مصر منذ زمن بعيد، عمل والده بالجالية اليونانية بالإسكندرية فترة من الوقت ثم تفرغ للعمل مع أخيه في تجارة القطن، لم يهتم (لوقا) بعمل أبيه، فقد كان عاشقا للفن بكل صوره، لم يشعر (لوقا) في وقت من الأوقات بأنه

في غير بلاده، حتى إنه اتفق يوما مع صديق له يُدعى (خارييلوس جورجيادس) أن يرسل إلى رئيس الديوان الملكي (علي ماهر باشا) عام ١٩٣٧؛ لإبلاغ الملك فاروق الأول بأن اليونانيين ينتظرون من محطة الإذاعة للحكومة المصرية أن تجعل برنامجها يشمل بعض الأغاني اليونانيّة ولو مرة واحدة أسبوعيا، عشق (لوقا) التفاصيل وكتابة الحكايات، كان مميزا بهدوئه ورقة ملامحه وغمّازة ذقنه، كانت له عينان زرقاوان ملفتتان مثل لون السماء الصافية.

اهتم (لوقا) كثيرا بحكاية بيت (أم فوزية)، فبداخلِ ذلك البيت الكبير القديم المخيف تكمن الأسرار، وعن صاحبته تُحكَى النوادر والحكايات.

صاحبة البيت وبائعة الخبز والكعك (فوزية)؛ ذات الجمال الفائق والجسد الفاتن والنظرات المتوهجة والكلمات الساحرة، هي اقتربت من الخمسين، ولكن عندما تقع عيناك عليها تتوهم أنها فتاة في العشرين، تزوجت العديد من الرجال، بعض الناس يقولون إنها تزوجت أكثر من عشر مرات، غير الزيجات التي تمت في السر، والعلاقات العابرة المشبوهة، دائما تبدو في أبهى زينة، لا أحد يصدق أنها بائعة الخبز بل هي كساقية الخمر والهوى، تُلهب النفوس عشقا بكلماتها العذبة الساحرة، وجمالها الطاغي المستبدّ،

وذكائها الحاد.

ورثت البيت من أمها كما ورثت منها الجمال وطيب الحديث والشهوة والغموض، بُنِي البيت عندما اجتاح وباء الكوليرا (الشُّوطة) مملكة مصر عام ١٩٠٢، كانت تلك الموجة هي الموجة الثانية للوباء الذي بدأ انتشاره من معسكر الإنجليز في التل الكبير، ثم انتقل إلى الشرقية، ومنها إلى باقي مصر.

استرسل عم (فتحي) قائلا:

-بيت (أم فوزية)، لم تكن تلك هيئته، أخبرني أبى - رحمة الله عليه - أنهم في صباح يوم ما وجدوا البيت على تلك الهيئة المخيفة، ودبّ الذعر في الحي، وكًثرت الإشاعات، ودخلت الأقاويل في الخرافات والأساطير وازداد الأمر شدة، لكن لم يتجرأ أحد على الاقتراب!!.

تنهد عم (فتحي) وجفف جبينه بكم جلبابه، ثم ترك (التشت) وجلس بجواره على الأرض، وأفرغ (قُلة) المياه في جوفه وتجشّأ ثم نظر إلى البيت نظرة غير قصيرة، واسترجع الذكريات.

ظهرت (أم فوزية) في الحي عندما اجتاحت الشوطة (الكوليرا) مصر، لا أحد يدري من أين جاءت، ولا أحد يعرف سر حكايتها،

قامت ببناء البيت بمساعدة بعض الرجال، وفتوة الحارة وقتها (أحمد الدسوقي)، وسكنته هي وابنتها (فوزية) والخادمة (سفرجل) العجوز الشمطاء العرجاء الخرساء.

البيت مكون من طابقين، هيئته تثير النفور والخوف، نوافذه العالية العتيقة تنظر لك كأنها عيون مخيفة، تحذرك من شيء ما!

البيت فسيح، يعلو فوق الأرض بعدة درجات، بالمدخل ردهة واسعة خالية، أركانها مظلمة موحشة، على يسار المدخل كنبة متهالكة تنام عليها (سفرجل) بجوار قطتها السوداء العوراء، وعلى اليمين باب حجرة الصالون المغلق دائما، يعلوه تمساح صغير محنط، وعلى الحائط بجوار الباب صورة تذكارية لأم فوزية وهي جالسة على الكرسي، مرتدية عباءة سوداء، وبجوارها تقف (فوزية)؛ فتاة صغيرة متألقة بجمالها الفائق، ولكنَّ عينيها تنطق بالخوف والبؤس والغموض، بجوار تلك الصورة صورة تذكارية أخرى مماثلة، (فوزية) جالسة على الكرسي مثل أمها وبجوارها بناتها الثلاث.

في نهاية الردهة، سلم خشبي مصنوع من الخشب الثمين، منقوش برسومات غير مفهومة! يمتد إلى الطابق العلوي وغرف النوم.

حجرة الصالون كانت مميزة للغاية؛ فبداخلها صالون أنيق بديع، حافل بآيات الفن الجميل من لوحات وتحف وتماثيل، توارت جدرانها العالية خلف الستائر الحريرية.

خلف البيت توجد حديقة صغيرة، تتوسطها فسقية مهملة محاطة بالنخيل وشجر الجميز والمشمش، لا أحد يهتم بتلك الحديقة، فغرقت في بحر الغموض والظلمة والصمت المطبق ، كانت رؤوس أشجارها العتيقة المتشابكة تكتنف البيت بشكل يثير الرهبة.

بجوار البيت مخبز قديم صغير، لا يوجد في الحي مخبز غيره، لا أحد يعرف لماذا؟ ظل مخبز (فوزية) المخبز الوحيد في الحي، ملحق به غرفة تطلق عليها (فوزية) اسم: (المعمل)، مفتاح المعمل معلق بسلسلة فضة حول رقبة (فوزية)، ممنوع الاقتراب أو الدخول، فبداخله تقضي الساعات بحجة صناعة الكعك المحلي، واشتهرت بلقب (بائعة الخبز) بالإضافة إلى الكعك اللذيذ الذي تقوم بخَبزه بنفسها، وتضيف إليه خلطتها السرية بنكهات متعددة رائعة.

قبيل الغروب والسماء تشحب في استسلام، يقتحم الحي الزوار قاصدين بيت (أم فوزية)، كل يوم زوار جدد، لا أحد يستطيع أن يسأل من هؤلاء؟ وماذا يفعلون؟ لأن (شحاتة) بهيكله الصلب

وعضلاته المفتولة وصدره العريض وسماجة قسماته، ونظراته التي توحي بالعنف والغضب، كان يتشاجر دائما مع أي شخص يتجرأ على (فوزية) أو يتحدث عنها بسوء، فهو فتوة المخبز وذراعها اليُمنى وعاشقها الحزين، العابد لجمالها في صمت،كان يدفن حبه تحت ركامٍ من الحَنَق والغيرة، يستطيع أن يقطع الألسنة التي تتحدث عنًها بأي سوء.

(فوزية) كانت تعلم بحبه لها، تستمتع بنظراته وغيرته عليها، تعشق ضعفه وتردده أمامها، تتلذذ بعذابه وآلام قلبه المسهد كتلذذ المخمور.

أنجبت (فوزية) ثلاث بنات، كل منهن من زيجة، أكبرهن (كوثر) ورثت كل شيء من أمها وجدتها ما عدا الذكاء، لكن جمالها الصارخ يغفر لها ذكاءها المحدود، صوتها العذب يوقظ الغرائز من غفوتها، كانت مثل الفرس الجامح لا يستطيع أحد أن يردها عن أفعالها، هي الوحيدة المسموح لها أن تستقبل الزوار مع أمها في حجرة الصالون. حاولت (زهرة) الابنة الوسطى أن تسترق السمع عدة مرات وراء الباب لتدرك ما يحدث بداخل الحجرة دون جدوى.

(زهرة) كانت في التوجيهية، ذكية طيبة القلب، مرهفة الحس،

نقية السريرة، حلوة المعشر، لكنها لم تنل قسطا من جمال أمها أو أختها، ورثت ملامح أبيها، كانت سمراء البشرة، جاحظة العينين، أنفها كبير وشعرها أسود داكن مجعد، دائما مغموسة في السكينة والتأمل، وبالرغم من جمالها المحدود إلا أنها كانت تُميل القلوب بدماثة الخلق والذكاء والعطاء وحسن علاقاتها بأهل الحارة، (زهرة) كانت تخشى رؤية (سفرجل) الخادمة، فرؤيتها تثير بداخل قلبها القلق والخوف، لا تدري السبب!

بالرغم أن (سفرجل) عقلها صغير، إلا أن هيئتها تثير الفزع، وبالرغم من كونها خرساء إلا أن صوت أنينها يرجف الأبدان.

أحبت (زهرة) شابا يقطن بالحي يُدعى (مصطفى) يعمل عند عم (إبراهيم العطار)، ظلت تتبعه بشغف دون جدوى، حتى علمت (كوثر) بأمرها فقد رأتها يوما وهي تنظر إليه بحب وإعجاب، ضحكت (كوثر)، وقالت لها بصوت ساخر:

- مسكينة؛ هو لا يراك ولا يشعر بوجودك.

في يوم مرت (كوثر) بجوار دكان (عم إبراهيم)، وألقت التحية على (مصطفى) بدلال، ثم اقتربت منه هامسة في أذنه:

-سأنتظرك الليلة، سأترك الباب الخلفي للحديقة مفتوحا، لا

تتأخر.

كاد (مصطفى) أن يرقص طربا، وتسلل ليلا إلى الحديقة الخلفية للبيت في الوقت المحدد، وبمجرد ابتسامتها له، ضعفت إرادته وانفجرت غرائزه، غزت (كوثر) حصنه؛ عَندا في أختها، ورأتهما (زهرة) معا من شرفة حجرتها، فجفت حيوية روحها وينابيع حلمها، وبعد فترة من الوقت اعترفت لها (كوثر) بأنها لم تحبه، وإنما فعلت ما فعلته فقط من أجل إثارة غيرتها وحنقها، (كوثر) كانت تتباهى دائما بجمالها وأنوثتها وتعاير (زهرة) بقبحها وقلة حيلتها، فتجيب (زهرة):

أيها الشامت المُعيِّر بالدهر، أأنت المبروء الموفور؟

أم لديك العهد الوثيق من الأيام؟ بل أنت جاهل مغرور.

اجتاحت (زهرة) موجةٌ من الحزن والكآبة الثقيلة، فمن المؤلم أن الرجل الوحيد الذي عشقته لم ينتبه إلى تلك الحقيقة، غرقت في حوار طويل مع ذاتها المحمومة، دائما تشعر بالوحدة والأسى في ذلك البيت العتيق القاسي، كانت تشعر بأن الشر يسكن المكان، كانت تدرك أن ما يفعل الناس من شر يعيش بعدهم، أما الخير فللأسف غالبا ما يتوارى مع عظامهم، هذه هي الحقيقة، فعزمت

على دراسة الحقوق، وانغمست في قراءة الكتب والعبادة، وزاد اهتمامها بأختها الصغرى (شادية).

سكن الحي (يوسف)؛ شاب وجهه مستدير ممتلئ، عيناه باسمتان، قوي البنية يميل قليلا إلى البدانة، كان مميزا بسعادته، فهو لا يكفّ عن الضحك، يستطيع أن يحول بمهارة وذكاء كلَّ المآسي إلى مَهازل.

وفي يوم زار المخبز لشراء الخبز، ابتسامته وصحته الصارخة ووداعة قسماته لفتت انتباه (كوثر)، أسرعت سائلة في دلال:

- أنت غريب عن الحي؟

- أصبحت من سكانه.

- أين تسكن؟

- في بيت عم (إبراهيم العطار).

- أنا (كوثر).

- وأنا (يوسف).

ضاقت (فوزية) من حديثهما معا، فأسرعت طالبة من (شحاتة)، أن يلبي طلبات (الأفندي) لينصرف، ارتبك (يوسف) للغاية،

واحمر وجهه خجلا ولزم الصمت، ثم أخذ الخبز ورحل.

التفتت (كوثر) إلى أمها غاضبة:

- تصرفك غريب.

- ما غريب إلا الشيطان.

-حسنا، سأذهب إلى (شيكوريل).

- عندنا ضيوف الليلة!

ظهر الضيق على وجه (كوثر)، وقالت:

-وما الجديد؟ ضيوف الليلة وكل ليلة!، متى ستبدأ (زهرة) العمل معنا؟

-أي عمل؟ الفرن؟

-لا، العمل الآخر! لابد وأن تتعلم و...

قاطعتها (فوزية) بصوت غاضب حازم:

-لقد تحدثنا سويا قبل ذلك، وقلت...

قاطعهما اقتراب عم (فتحي) بوجهه البشوش، وعينيه اللتين تنطقان بالحبَ:

- صباح الفل يا ست فوزية.

- صباح النور يا فتحي، فيك الخير، كنت سأرسل لك.

رقص (فتحي) فرحا:

- قولي والنبي!

ضحكت (فوزية) ضحكة عالية رقيعة، تلك الضحكة الساحرة جعلت (شحاتة) ينظر لهما غاضبا ثائرا على أحد زبائن الفرن.

وأسرعت (كوثر):

- سأذهب إلى (شيكوريل)، ولن أتأخر.

ثم ابتعدت عنهما مسرعة، ابتلع (فتحي) لعابه بصعوبة، وانبعثت في أعماقه حرارة شديدة، واقترب من (فوزية)، وهي جالسة بالقرب من مدخل الفرن، أمامها منضدة عليها فنجان القهوة الساخن، ثم همس (فتحي)، قائلا بصوت دافئ:

-أؤمريني يا سيدتي، يا أميرتي.

ابتسمت (فوزية) ابتسامة هادئة، ونظرت في عينيه نظرة طويلة أثملته، فترنح بعيدا عن تيار الزمان، وأجابت بصوت هامس:

- رؤيتك تفعم قلبي بالبهجة، أردت أن أرسل لك عدة قطع

من النحاس مع (سفرجل).

- وأنا خادمك، وكل ما أتمناه هو رؤيتك كل يوم.

ثم ارتفع صوت (شحاتة) يتشاجر مع أحدهم غاضبا:

-ارحل من هنا يا ابن الزانية!

تجمد (فتحي) في مكانه، لقد رأى عين (شحاتة) تنطق بنظرة تحدٍّ صارمة، وعضلاته متوثبة للشجار، فرمشت عيناه في ارتباك ولاذ بالفرار.

أقبل الليل بهدوئه وجلاله، وجلست (زهرة) في فراشها، ماسكة بيدها رواية (دعاء الكروان)، تقرؤها بصوت عالٍ متأثرة بالكلمات، قائلة:

- ها أنت ذا أيها الطائر العزيز، تنشر في الجو المظلم الساكن نداءك السريع، لا أكاد أمضي في النوم حتى تسرع إليَّ فتوقظني، كأنما أخذت على نفسك عهدا ألا تخلِّي بيني وبين النوم.

تنهدت (زهرة)، وأغلقت الكتاب وتركته جانبا، ثم نظرت إلى باب حجرتها المغلق، وشردت لدقائق، ثم بدا على وجهها أنها عزمت على القيام بشيء ما، واتجهت مسرعة حافية القدمين نحو الباب وفتحته، وخرجت بخطوات خفيفة حتى لا يشعر بها أحد،

نزلت الدرج وأسرعت حتى وصلت إلى حجرة الضيوف وبابها المغلق، والتصقت بالباب حاولت أن تسترق السمع دون جدوى، ثم جرت مسرعة واختبأت في الركن المظلم وراء السلم الخشبي، فُتح الباب وخرجت (فوزية) وراءها (سفرجل) عارجة ماسكة بقطتها السوداء العوراء، ثم قالت (فوزية) بصوت غاضب حازم:

- ابحثي عنها في كل مكان، ربما تكون جالسة في الحديقة، لقد أخبرتها هذا الصباح بوجود الضيوف!

هزت (سفرجل) رأسها بإيماءة، وبعدت متجهة إلى الحديقة، وعادت (فوزية) إلى ضيوفها داخل حجرة الصالون، وأغلقت الباب في هدوء، عم الصمت المكان، فخرجت (زهرة) من مخبئها وتنفست الصعداء، ثم فرت هاربة نحو غرفتها.

في اليوم التالي، إبان الظهيرة، جلست (فوزية) بداخل حجرة الصالون بجوار (الجرامافون)، تسمع أغنية (رق الحبيب) لأم كلثوم، تدندن معها كلماتها قائلة:

-(رق الحبيب وواعدني يوم وكان له مدة غايب عني).

وانتهت من آخر رشفة من فنجان القهوة الساخن، حينما دخلت (زهرة) البيت بعد عودتها من المدرسة، متأبطة حقيبتها،

وقد بدا على وجهها الحزن والضيق، مرت بجوار حجرة الصالون قائلة بصوت حزين:

- سعيدة.

أجابت (فوزية):

-سعيدة مبارك، (زهرة)!

-نعم.

-ما بك؟

- لا شيء.

- تعالي.

اقتربت (زهرة) من حجرة الصالون ودخلت، أشارت لها (فوزية) بالجلوس بجوارها، ثم سألتها مرة أخرى:

- ما بك؟

أجابت (زهرة) بصوت هادئ:

- أريد أجوبة على أسئلتي!

-اسألي!

- الضيوف، ضيوف الليلة وضيوف الأمس، ضيوف كل ليلة! مَن هم؟ وماذا يريدون؟

قلبت (فوزية) الفنجان على طبقه لتتمكن من قراءته لاحقا، ثم ابتسمت نصف ابتسامة، وتحسست صفحة وجهها بمنديل مبلل بماء الكولونيا، لقد جعلت الهواء الساكن الراكد محملا برائحة العطر، وأجابت بنبرة تنم عن السخرية:

- كنتِ في المدرسة تفكرين في ضيوفي؟!

أجابت (زهرة) بانفعال:

- هل تعلمين شيئا عن أحاديث البنات في المدرسة، عن حكايات أهل الحي عنا؟

أجابت (فوزية) بلا مبالاة:

- أعلم!

- ثم؟!

- لن يكفوا عن الحديث، وعن سرد الحكايات عنا وعن غيرنا، ولكن، لا يستطيع أحد منهم أن يتجاوز حدوده معي أو يُقدم على إلحاق الأذى بواحدة منكن.

أسرعت (زهرة)، وقامت بإغلاق (الجرامافون) قائلة:

- البركة في (شحاتة)، الناس يهللون للقوي أيًّا كان، وقد يسجدون أمامه؛ خوفا وطمعا في النجاة، ولكنه لا يستطيع أن يجبرهم على احترامنا!

ظهر الغضب على وجه (فوزية) قائلة:

- لم أدخلك المدارس لتقفي أمامي هكذا وتقومي بمحاسبتي.

اقتربت (كوثر)، ووقفت بجوار باب حجرة الصالون واكتفت بالمشاهدة، فأسرعت (زهرة) بصوت عالٍ:

- منِ حقي أن أعلم ماذا يحدث هنا بداخل البيت الذي أقطن به، لماذا أُمنع من دخول تلك الحجرة ومقابلة الضيوف؟ لماذا أُمنع من دخول المعمل؟ لماذا تحتفظين بمفتاحه معلقا حول رقبتك؟ ولماذا (كوثر) هي فقط التي يُسمح لها بالدخول ومعرفة كل شيء؟

أجابت (فوزية) بصوت هادئ:

- هل انتهيتِ؟

عم الصمت للحظات، اقتربت (سفرجل) عارجة ووقفت بجوار (كوثر)، ثم استرسلت (فوزية):

- مثل كل مرة، سأقول لك، لا تشغلي بالك بأشياء لا تخصك، كل المطلوب منك أن تهتمي بدراستك وبــ (شادية).

اقتربت (فوزية) من (الجرامافون)، وقامت بتشغيله مرة أخرى، وجلست تطالع فنجانها، زاد غضب (زهرة) ثم قالت:

-و(بديع)؟

ترامشت الأعين في ارتباك، ونظرت (كوثر) إلى أمها مندهشة، واسترسلت (زهرة) متسائلة:

- متى ستخبرينا عنه؟ أم تنتظرين إتمام الزيجة؟ الزيجة التاسعة!

اقتربت (فوزية) من (زهرة) في هدوء، وصفعتها على وجهها، قائلة:

-قليلة الأدب!

ترقرقت الدموع بعيني (زهرة)، ونظرت إلى أمها في أسى ثم إلى (كوثر)، وأسرعت نحو حجرتها.

عادت (فوزية) إلى كرسيها، وأمسكت بفنجانها مرة أخرى، فأسرعت (كوثر) متسائلة:

- بديع؟ ناظر الوقف؟

- بتخرف؟

- كيف عرفت (زهرة) (بديع) وهي لم تقابله من قبل؟!

أجابت (فوزية) وهي تدقق النظر بفنجانها غير مكترثة:

- لا أدري، اسأليها.

وساد الصمت للحظات، ثم تركت (كوثر) الحجرة غاضبة، وما زالت (سفرجل) متجمدة في مكانها.

جاءت ليلة شتوية هادئة مقمرة، صعدت سيارة سوداء منحدر الشارع، ونفخ السائق في بوق السيارة عدة مرات، ثم توقفت السيارة بالقرب من المقهى المقابل للبيت، ونزل السائق منها، وجد أمامه (شحاتة) جالسا بمفرده على أحد كراسي المقهى يشرب القرفة الساخنة، فسأله:

- أين بيت (أم فوزية)؟

تأمل (شحاتة) هيئة السائق، ثم نظر إلى السيارة لبضع ثوان، وأجاب مُهمهما، مشيرا نحو البيت:

- هذا هو بيت (أم فوزية).

تأمل السائق البيت، وبدا على وجهه عدم الارتياح، ثم أسرع

قائلا:

- أشكرك.

عاد السائق إلى السيارة مسرعا، واقتربت السيارة من البيت أكثر، ونزل السائق مرة أخرى ليفتح الباب، وما زال (شحاتة) يراقبه في فضول، ثم نزلت سيدة راقية، وأسرعت بخطواتها نحو البيت، فبدا على وجه (شحاتة) السكينة والهدوء، وفتل شاربه الغزير، واستغرق في تأملاته ثم استطرد، ورشف القليل من فنجانه الساخن، لكنه شعر بالأعين الساخطة من حوله، نظر إليهم في حدة وتحدٍّ، فارتمشت الأعين في ارتباك.

وساد صمت كالموت، لقد غشيته الوحدة التي ألفها وضاق بها، لم يجد مفرا من إشعال سيجارته المحشوة بالحشيش المغشوش المخلوط بالحنة والعسل الأسود لتبعث حرارة كاذبة وتمنح خيالا فاترا، وتناول الشاعر الربابة واستعد للإنشاد، حكى الشاعر عن قوة فتوة الشارع (الدسوقي)، وعن قصة مصرعه إثر اختناقه ببذرة ثمرة المشمش، كان صوته عذبا ساحرا، انسجم معه الحضور حتى وافاه الختام، وبدا القلق على وجه (فتحي)، كان يخشى رد فعل (شحاتة) من تلك الأنشودة الساحرة، ثم ترامت تحيات الإعجاب والاستحسان على الشاعر وربابته، ووقف (شحاتة) فجأة فَعَمَّ

الصمت، وارتعش الشاعر خوفا، ثم اندهش الحضور بمغادرة (شحاتة) في هدوء، واتجه مسرعا نحو بيت (أم فوزية).

وبالداخل، وقف بجوار باب الصالون المغلق يتحدث مع (كوثر).

قالت له:

- لا تستطيع رؤيتك الآن.

- وأنا لن أنصرف قبل أن أتحدث معها.

- وهي مشغولة مع ضيفتها، ولن تخرج الآن.

ازداد غضب (شحاتة)، وزادت حدة صوته، قائلا بصوت غاضب:

- لن آخذ من وقتها الثمين سوى بضع دقائق.

خرجت (فوزية) مسرعة، قد بدا عليها الغضب، ثم قالت:

- اجلسي مع الضيفة يا (كوثر).

دخلت (كوثر) حجرة الصالون، وأغلقت الباب، اقتربت (فوزية) من (شحاتة) غاضبة:

-ما الأمر الذي لا يستطيع الانتظار حتى الصباح؟

تأمل (شحاتة) وجه (فوزية) بعينيه العاشقة لحد الجنون، تلعثم واضطربت كلماته، مرت عدة ثوان في صمت، اشتد امتعاض (فوزية)، قائلة:

- تكلم، ما الأمر؟

نظر (شحاتة) إلى الأرض خجلا، ثم همهم:

- لا شيء، أرجو المعذرة.

اتجه نحو الباب حزينا، أسرعت (فوزية) في دهشة:

- ما بك يا (شحاتة)؟ تكلم.

نظر إليها، ثم قال:

- أتألم!

ثم كشف عن أعلى ذراعه، فرأت وشما يحمل ملامح وجهها، وقال بصوت بائس:

- أَيُكتب عليَّ كل هذا العناء والألم لا لشيء إلا لأنني أحبك؟!

قال تلك الكلمات، ثم غادر مسرعا، لم ينتظر رد فعلها، لم يحاول النظر في عينيها، كان يخشى الخيبة وضياع الأمل، كان يخشى فقدانها إلى الأبد، ظلت (فوزية) متجمدة في مكانها، ذابت الصورة الغليظة

الوحشية التي رسمتها في خيالها لـــ (شحاتة)، هي كانت تشعر بعشقه، لكنها لم تدرك مدى جنونه بها حتى يومها هذا، ذهلت بشدة قبل أن تتمكن من استرداد توازنها حينما خرجت (كوثر) من حجرة الصالون، قائلة:

- لقد ضاقت الضيفة ذرعا من الانتظار!

تنهدت (فوزية)، ثم نظرت مرة أخرى نحو الباب في شفقة، قائلة بصوت هامس:

-أنا قادمة.

في صباح اليوم التالي، باشر (شحاتة) عمله بالفرن، مؤديا عمله الروتيني الذي يقوم به كل يوم، كان يخشى النظر إلى (فوزية)، أما هي ظلت تراقبه بعينيها، تراقب حركات ذراعيه القوية بنظرات متلصصة، شعر بنظراتها فبدا عليه الاعتزاز بقوته، لم يملك أحد منهما الشجاعة للخوض في ذلك الحديث مرة أخرى، اكتفى (شحاتة) بالبوح بمشاعره تلك الليلة، (شحاتة) قد سبق له الزواج مرة، تُوفيت امرأته وهي حامل، أصابه الحزن ورحل عن بلدته، واتجه إلى القاهرة بحثا عن الحياة، كان مميزا بقوته الصارخة.

وقت دخوله الحارة، كان هناك شجار بين (فوزية) وأحد سكان

الحارة، وتدخل (فتحي) دون جدوى، وقام الرجل بسب (فوزية) ولعنها، فأسرع (شحاتة) بسبه فلكمه الرجل، فضربه (شحاتة) ضربا مبرحا، ومنذ ذلك اليوم لم يبتعد (شحاتة) عن الفرن، وغرق في حب (فوزية)، كان قلبه ينزف دما مع كل زيجة، ويرقص طربا مع رحيل رفيقها أملا في الحصول على فرصة للاقتراب منها والفوز بقلبها، ظل على نهجه هذا محاولا قتل يأسه في مهده، منتعشا بنشوة الأمل في الحب والحياة.

مضت الأيام كسالف عهدها، البيت يزداد غموضا، رائحة الشر والشهوة تنتشر في المكان، ضاقت (زهرة) كثيرا من حالها، فكرت عدة مرات في الفرار من البيت، الفرار من قصة حب فاشلة، من جمال أختها وكيدها، من مغامرات أمها ونظرات الناس لها، ولكن إلى أين؟ هل ستترك (شادية) في ذلك البؤس والشقاء؟ فطالما تشاجرت مع أمها بسبب زيجاتها المتعددة، قالت كلاما وأجابت الأخرى بكلام، وضاع الكلام وقت الألم، فولت ظهرها نحو ضجيج البيت والمخبز، واهتمت بدراستها.

وجاء يوم من أيام الشتاء القارس البرودة، وتوارت الشمس وراء ركام السحب وهب هواء مزمجر صارخ، وازداد غضب الطبيعة وثورتها بقدر ما تسمع من صفيرها من خلال زجاج

النافذة، ثم أقبل الليل وسقطت الأمطار في عربدة صارخة، فشعرت (زهرة) بضيق شديد، واستغلت انشغال أمها في حجرة الصالون مع الضيوف كالعادة، وغادرت المنزل، سارت على غير هدى في طرقات الحي الفقير، بذهن شارد ذاهل وبنفس يائسة حزينة منهارة، وجدت نفسها بعيدة عن الحي، وبعد لحظات، رأت (يوسف) واقفا أمامها ملقيا التحية بوجهه الباسم الهادئ:

- سعيدة.

لم تجب (زهرة) وأسرعت هاربة، أسرع (يوسف) قائلا:

- أنا جاركم، ساكن عند عم (إبراهيم العطار)، أنتِ الآنسة (زهرة)، صح؟

توقفت (زهرة) ونظرت له في دهشة، وعم الصمت للحظات إلا من صوت أنفاسها العالية تتلاحق لاهثة، ترتجف من شدة البرودة ومن ملابسها المبللة، ثم قالت بصوت مرتعش:

- هل تعرفني؟

اقترب منها (يوسف) لحمايتها بمظلته السوداء، ثم خلع معطفه الجاف ووضعه على كتفها،و قال:

- نعم، لقد رأيتك عدة مرات في الشارع، لقد أسرتِ قلوب

أهل الحارة بمساعدتك لأولادهم.

وميض البرق جعلها ترى ملامح وجهه بوضوح، وكأن السماء أرسلت لها بلسما يداوي جروحها، ثم استدرجها من شرودها، وقطع صمتها قائلا:

-أنا (يوسف)، من الكوربة بمركز فاقوس الشرقية، أعمل مع فرقة (الريحاني).

- فرقة الريحاني؟

- نعم، نجيب الريحاني.

-حقا؟!

ابتسمت في هدوء، واسترسل في حديثه، وهي تسير بجواره، تسمعه وهو يحكي عن عمله وعشقه للمسرح والريحاني، وكيف كان سعيدا بمشاركته في مسرحية (إلا خمسة)، التي ظلت تعرض بنجاح فترة طويلة، كما مُثِّلت بالأوبرا بحضور الملك فاروق، وأن توفيق الله له جعله يكسب دورا جديدا معه بمسرحيته الجديدة (سلاح اليوم)، ثم قال لها:

- في يوم، ستصل شهرتي الآفاق، أنا واثق أن هذا اليوم سيجيء لا مَحالة.

لم تعلق (زهرة) على كلامه، فاستطرد قائلا:

- أعلم أنكِ ستقولين عني شاب مغرور ومدع، هذا ظن الكثير بي، لكن لا حيلة لي في ذلك، وشعوري صادقٌ، كما أن لديَّ ثقة ضخمة بموهبتي.

هدأت الأمطار وابتعدت السحب الكثيفة عن وجه القمر، وتوقف الهواء العاصف الغاضب، وأسرع (يوسف) متسائلا عن سبب شرودها في تلك الليلة الباردة، متطفلا بفضول لمعرفة سر البيت المنطوي على نفسه كاللغز، وعن سر هيئته المخيفة، ارتبكت (زهرة) وفرت هاربة، ثم توقفت فجأة، واتجهت نحوه مرة أخرى، وأعطته المعطف شاكرة، وفرت مرة أخرى، وظل هو متجمدا في مكانه، لا يبدي حراكا، ثم أسرع خلفها، ولكنها اختفت تماما وكأنها ذابت في ظلمة الليل، اتجه بخطوات سريعة نحو البيت، فوجده ساكنا مظلما موحشا.

عادت (زهرة) إلى البيت، لم يلحظ أحد غيابها، واتجهت بهدوء نحو السلم الخشبي، ثم سمعت صوت همهمة، فتوقفت عن الحركة، وسارت خلف الصوت حتى وصلت إلى المطبخ، ووقفت وراء الباب ولمسته فوجدته مفتوحا، ورأت أمها تتحدث مع (سفرجل) بصوت هامس:

-خذي، كفاية نصف ملعقة، لا تزيدي!

و هزت الأخرى رأسها بالإيجاب، ورأت (زهرة) أمها تعطي (سفرجل) كيسا صغيرا به القليل من البودرة الملونة، ثم سألتها (فوزية):

-هل رأيتِ الحديقة؟ النار ستلتهما، والخراب سوف يلحق بها.

هزت (سفرجل) رأسها مرة أخرى بالإيجاب، شعرت (فوزية) بأن هناك من يسمعهم، فنظرت فجأة نحو باب المطبخ، وجرت (زهرة) مختبئة في الركن المظلم خلف السلم الخشبي، وخرجت (فوزية) مسرعة تنظر يمينا ويسارا، لكنها لم تجد شيئا يلفت الانتباه، فعادت إلى المطبخ مرة أخرى، وبعد لحظات أسرعت (زهرة) راكضة نحو حجرتها، دقات قلبها تتسارع كأنها خيل في سباق، تحاول أن تستجمع قواها، تحاول أن تستوعب ما سمعته.

في الصباح، تصايحت الديكة وتواثبت العصافير فوق الأغصان مغردة، وأرسلت الشمس دفقات من الحرارة الواعدة لتلطف من جو الشتاء، و(زهرة) ما زالت في سريرها مستيقظة لم تنل قسطا من النوم والراحة، ظلت تفكر في حديث أمها مع (سفرجل)، أيقنت أنها لابد وأن تتحلى بالشجاعة وتدخل المعمل، لابد أن تفهم ما

يحدث، وما هو دور (سفرجل)، لماذا منعت (فوزية) اقترابها من المعمل؟ ماذا يوجد بداخله؟ وتذكرت ذلك الباب المغلق في المطبخ، فهناك سلم داخلي بين المطبخ والمعمل، لكن كيف ستفتح الباب؟ كيف ستصل إلى المفتاح المعلق بتلك السلسلة حول رقبة (أمها)؟ لابد أن هناك طريقة ما.

وفي طريق عودتها من المدرسة، سارت (زهرة) بجوار صديقتها (نوال) شاردة الذهن، ثم بلغ مسمعها صوت بكاء وصراخ، فتوقفت عن الحركة ورأت الكثير من المارة يهرولون إلى قصر (برهان باشا)، أسرعت (نوال) تسأل أحدهم عن سبب الصراخ والبكاء، فأجاب الرجل حزينا:

- النار التهمت حديقة (برهان) باشا، في قصره بآخر الشارع.

تجمدت (زهرة) في مكانها، كادت تتهاوى في موضعها، وتذكرت كلمات أمها لــ (سفرجل) حين قالت لها:

- هل رأيتِ الحديقة، النار ستلتهما، والخراب سوف يلحق بها.

سألت نفسها: هل هذه هي الحديقة المقصودة؟ كيف؟ ولماذا؟!

أقبل الليل، ورحل الضيوف، وعم الصمت داخل البيت، وأسرعت (شادية) ترتجف من الخوف راكضة نحو حجرة (زهرة)،

تتوسل إليها أن تنام بجوارها على سريرها، فسألتها (زهرة) عن سبب خوفها، ولكن التزمت (شادية) الصمت، ثم ذهبت في سبات عميق في حضن أختها، كأنها لم تنم منذ أعوام، قامت (زهرة) واتجهت نحو باب حجرتها المغلق حافية القدمين، وفتحته وخرجت بخطوات هادئة خفيفة، ووقفت أعلى السلم الخشبي، رأت (سفرجل) نائمة على أريكتها المتهالكة، بجوارها قطتها السوداء العوراء، كانت لقطتها عين عوراء جاحظة، وكأنها نخاعة في جدار، كانت نظرتها مخيفة مفزعة، رأت (زهرة) باب حجرة الصالون مفتوحا والحجرة مضاءة، وسمعت صوت (أسمهان) تغني (يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي جرالي...)، توجهت نحو الحجرة، فرأت (أمها) جالسة بجوار (الجرامافون) ماسكة بكأسها، سكرانة تشدو مع الأغنية، وأمامها زجاجة خمر شربت معظمها، اندهشت (فوزية) عندما رأت (زهرة) واقفة بجوار باب الحجرة، فسألتها:

- ماذا؟ هل جفاك النوم؟

لم تجب (زهرة)، بل ظلت تنظر لها في حسرة وشفقة، مما أثار غضب (فوزية)، وقالت بصوت سكران متعب:

- ماذا تريدين؟ هل جئتِ لتعطي لي درسا عن الأخلاق؟ إني

أمقت تلك النظرة.

ثم وقفت فجأة، ووضعت كأسها بجوار الزجاجة، وقالت بصوت مخمور متقطع:

- الأفوكاتو (زهرة)، حضرة الأفوكاتو، أحب هذا اللقب كثيرا، أنتِ الأفضل لا شك، ولكن، لابد وأن تعلمي أن الفرصة التي أتيحت لك، هي التي خلقت منك تلك الفتاة التي تقف أمامي الآن بنظرتها الساخطة الحكيمة، تلك الفرصة هي التي ستخلق منك حضرة الأفوكاتو الناجحة. لم تُتح لي الفرصة مثلك.

ثم تنهدت، وقالت بصوت موجوع بائس:

- إني أمقت نظرتك لي.

ثم اختل توازنها، وسقطت على الأرض مغشيا عليها.

أسرعت (زهرة) برفعها ووضعها على الأريكة، تأملت وجهها الجميل الهادئ في حسرة، وأغلقت الجرامافون، ثم نظرت لها مرة أخرى، فوقعت عيناها على السلسلة حول رقبتها، توقفت للحظات مترددة، تأملت ذلك المفتاح المعلق بالسلسلة بعيون حائرة وعقل مشتت وقلب خائف، كانت تكره في نفسها قلة حيلتها، تكره ترددها وحذرها وخوفها وضعفها، لم تكن القدرة

هي التي تنقصها، إنما الثقة والجرأة.

بعد عدة دقائق، اتجهت (زهرة) بخطوات سريعة مضطربة نحو الباب الداخلي للمطبخ، فتحته وتوقفت للحظات، دقات قلبها تتسارع، صدرها يرتفع وينخفض، المكان مظلم موحش مخيف، فقامت بإشعال شمعة، وهبطت الدرج مسرعة حتى وصلت إلى باب المعمل، حاولت فتحه عدة مرات بالمفتاح دون جدوى، العرق ينهمر على جبينها، يدها ترتجف من الخوف، وأخيرا تمكنت من فتح الباب، هدأت قليلا وتباطأت أنفاسها، حركت الشمعة يمينا ويسارا، وتأملت الغرفة، لا يوجد بها شيء غير مألوف يلفت الانتباه، فبداخلها منضدة طويلة عليها دقيق وسكر وسمن، وبالجوار يوجد حوض صغير بجواره فرن صغير، تنهدت (زهرة) في حسرة، أدركت أنها تبحث عن سراب، هواجس ليست موجودة إلا في خيالها، فخرجت وأغلقت الباب بالمفتاح، وصعدت درجتين من السلم، ثم توقفت فجأة، وكأنها تذكرت شيئا ما، فنزلت مرة أخرى مسرعة وانطفأت الشمعة، فتحسست الحائط وسارت معه، وعم سكون رهيب مفزع، فشعرت وكأن هناك أنفاسَ شخص يقف بجوارها مما جعلها ترتجف وتهلع، فقامت بإشعال الشمعة مرة أخرى بيد مرتجفة خائفة، ولكنها لم تجد شيئا، اقتربت من الباب

وقامت بفتحه مرة أخرى، واتجهت نحو الفرن بخطوات سريعة قوية ثابتة، ومدت يدها داخل الفرن.

جاء الصباح، واستيقظت (زهرة) متأوهة، وبعد لحظات دوّى صوت بكاء (سفرجل) في البهو، فاتجه الجميع نحو صوت البكاء، وانتقلت (فوزية) من عالم الأحلام المخدرة إلى دنيا الحقائق شديدة الجفاء، واغتصبتها اليقظة من عالمها السعيد إلى صوت البكاء الحزين، وتحسست بيدها المفتاح المعلق حول رقبتها لتطمئن بوجوده كعادتها كل صباح، وتفاجأت بأنها ما زالت في حجرة الصالون، لقد غلبها النعاس ونامت مكانها، ثم قامت واتجهت بخطواتها الضعيفة المترنحة نحو البهو، وتساءلت عن سبب بكاء (سفرجل)، فأجابت (شادية) هامسة:

- قطة (سفرجل) ماتت!

ظلت (زهرة) متجمدة في مكانها شاردة تنظر إلى (سفرجل)، وهي جالسة في منتصف البهو حاضنة قطتها السوداء، تبكي وترتجف متألمة، أما (كوثر) فقد كانت عصية الدمع، جافة المآقي، لم تأبه لبكاء (سفرجل) واتجهت إلى غرفتها في هدوء غير مكترثة.

تنهدت (فوزية)، وجلست بجوار (سفرجل) تواسيها، ونظرت

(شادية) إلى أختها (زهرة)، مبتسمة فرحة هامسة:

- أحسن إنها ماتت، أنا كنت بخاف منها.

نظرت لها (زهرة) غاضبة، فأسرعت (شادية) ببراءة قائلة:

- ماذا؟ أنتِ أيضا كنتِ تخافين منها!

التزمت (زهرة) الصمت، فبالرغم من نفورها الدائم من (سفرجل)، إلا أن بكاءها هز أوتار قلبها، لم تستطع أن تواسيها، لم تجد كلمات تعبر عن ذلك الصراع الذي يدور بداخلها، واكتفت بالصمت.

اندفعت (كوثر) وراء (يوسف) بشغف، حاولت أن تهاجم حصن قلبه المنيع دون جدوى فازداد غضبها، لم تستطع أن تستوعب فكرة أن هناك رجل قد يقول لها: لا. راقبته عن كثب، وارتابت في أمره، فهي لن تقبل الهزيمة، كلما زاد إصرارها كلما ازداد نفوره منها، فطحنتها الخيبة، وتجرعت مرارة الهزيمة، وسعدت (زهرة) بذلك كثيرا، وتكرر اللقاء بين (يوسف) و(زهرة)، كان غرض (يوسف) في بداية الأمر أن يُرضي فضوله بمعرفة ما يحدث في هذا البيت؟ وما أصل حكايته؟ ولماذا يبدو بتلك الهيئة المخيفة؟

و لكن مع مرور الوقت، اكتشف أنه يقابلها؛ لأنه وجد في

حديثها لذة، فهي عاشقة للقراءة والكتب، تحكي له النوادر والحكايات فيجدد حياته بقصصها الممتعة، كانت مصدر الثقافة والمعرفة بالنسبة له، كان الحديث بينهما مسليا للغاية، فقد أثارت دهشته عندما سردت له قصصا من التاريخ كقصة (نيرون)، وكيف أنهى حياته بقتل أمه وزوجته ثم قتل نفسه، فقد كانت تعشق التاريخ، تقرأ كثيرا وتحكي كثيرا، قصت له قصة ملكة تايلاند التي ماتت غرقا، وكان بإمكان الناس إنقاذها بعد انقلاب القارب، ولكن اكتفوا بالمراقبة والمشاهدة وهي تحتضر، وذلك لأن عقوبة مس الملكة الإعدام، قصت له قصصا رومانسية من روائع الأدب العربي، فهي من عشاق (طه حسين)، وبكت له وهي تحكي رواية (دعاء الكروان)، أبدعت في وصف بعض الأماكن حتى شعر وكأنه زار تلك المدن بروحه وعقله، كان يشعر معها بأنه شخص آخر، صارت في نظره تلك الشخصية المثالية التي تعرف كل شيء.

في يوم سألته متلهفة، قائلة:

- كلمني عن نجيب الريحاني.

ابتسم (يوسف) قائلا:

- لا توجد كلمات كافية لوصفه، هو صاحب بصمة كبيرة على

المسرح، هو مَن صنع مسرحا خاصا للرجل المصري البسيط، بلغة يفهمها الفلاح والعامل ورجل الشارع، مسرحا بطعم الطعمية والملوخية مثلما يقول، في بعض الأوقات أشعر بشدة ضآلتي بجواره، تخونني ثقتي في ذاتي عندما أسمعه وهو يحكي.

-أتمنى الذهاب معك يوما لرؤيته.

-متى تشائين.

تكرر اللقاء، أخبرها بالمزيد عن نفسه فهو ولد وحيد، وأهله ليسوا من الأثرياء، والده تمنى أن يلتحق بالجامعة، ولكن عشقه للفن جعله يدبر أمره حتى وصل إلى فرقة الريحاني.

وسرعان ما تحولت الصداقة بينهما إلى هالة مضيئة تحيط بالعاشقَيْن، كل منهما شعر بالعشق تجاه الآخر، ولكنهما ترددا بين الإقدام والإحجام، فلم يعلن أحد منهما عن عشقه، هي كانت سعيدة راضية بذلك الشعور، كانت تخشى أن تفتح بوابة قلبها أكثر فيستهين بها، أما هو فقد كان يعلم أن الأعين تحدق به، عشرات النظرات قد تصفعه بازدراء إذا أراد الزواج منها، فهي ابنة (فوزية) بائعة الخبز ساقية الهوى، ومع علمه بل يقينه بأن (زهرة) ليست مثل أمها أو أختها، ولكن هذا هو قدرها.

في يوم، وفي طريق العودة من المدرسة، سارت (زهرة) بجواره، كان وميض عينيها يزداد توقدا، وهي تتحدث معه عما أحرزته من تقدم في يومها الدراسي الطويل، رأتهما (كوثر) سويا، وذعرت(زهرة) قائلة لــ (يوسف):

– (كوثر) لن تتركك بسهولة، لن تفتر حماستها، أنت لا تستطيع أن تهدم تلك القصور التي بنتها في رأسها، لا تستطيع أن تفسد عليها حلم النشوة والنصر.

ثم تمتمت بصوت حزين بائس:

– (كوثر) جميلة.

فأجاب (يوسف) مسرعا:

– نعم، هي جميلة، وجوفاء فارغة.

ثم توقف عن الحركة، ونظر إلى (زهرة)، وشد على يديها شدا قويا نقل إليها تيار شغفه وعشقه، وقال بصوت هادئ:

– أما أنتِ يا (زهرة)، يا زهرة القلب، رزينة هادئة، أنتِ التي تمنح قلبي الطمأنينة الكاملة، أنتِ جميلة الوجه والقلب، أنتِ التي تخلقين من القبح حسنا ومن الألَم لذة، أنتِ سعادة الروح ومهجة الفؤاد.

احمرّ وجه (زهرة) خجلا، كأنما أزيح ستار فأبصرت أشياء لم ترها عينها من قبل، شعرت وكأن الأرض نفثت أطنانا من الحرارة اللافحة، وفرت من أمامه هاربة، لاتدري إلى أين؟ شعرت وكأنه كانت هناك قيود قد حلت من حول قدميها، وتركتها خفيفة تحلق في السماء بعيدا، كادت ترقص من فرط السعادة ومن عذوبة الكلمات.

امتدت يد الظلمة، وجلست (زهرة) في شرفتها، منتعشة بنسيم الليل المعطر برائحة النرجس والحشائش المبللة، فوجئت بـ (كوثر) تقتحم عليها غرفتها، سكرانه تلاطمها الجدران، فاكفهر وجهها للحظات ثم انبسطت صفحته رويدا، حينما ثارت (كوثر) قائلة، والخمر تلعب برأسها:

- إنه أحمق أبله مثلك!! من يعشق هذا الوجه الدميم؟ أكيد مجنون، من يرفض حبي أنا ويقبل بعشقك أنت، شخص ملعون.

لم تجب (زهرة) بل رمقتها بنظرة باسمة باردة، ثارت (كوثر)، قائلة:

-حسنا، استمتعي بنشوة النصر لأيام، سوف أثأر منكما معا، بعد أن تنتهي (سفرجل) من عملها، سوف أعطيها...

قاطعتها (فوزية)، بصوت غاضب صارخ:

- (كوثر)، كَفَى، لقد طلبت منك عدة مرات أن تبتعدي عن الخمر، اُخرجي.

نظرت (كوثر) إلى (فوزية)، وارتبكت ثم تركت الحجرة بصورة تستحق الرثاء، تمتمت (فوزية) غاضبة:

- غبية.

أسرعت (زهرة) متسائلة:

- ماذا كانت تقصد بـــــــ..؟

أجابت الأم مسرعة:

- كلامها لا يستحق الاهتمام.

ثم قالت ضاحكة:

- هذه هي مناورات الفتيات من أجل رجل يستحق الاهتمام!

و اقتربت من (زهرة) هامسة:

- كما أنها تحت تأثير الخمر.

ثم ساد الصمت للحظات، والتفتت (فوزية) نحو (زهرة) باسمة:

-(يوسف) شاب لطيف ومهذب، لكن، لا تنسي حلمك حضرة الأفوكاتو (زهرة).

ثم اقتربت منها هامسة:

- هل تعتقدين أنه يحبك؟

غضبت (زهرة)، وقالت:

- بالطبع.

- قد يكون مفتونا بك وبعقلك الراجح وقصصك الممتعة، لكن.

-ماذا تقصدين؟

-لا أدري، ربما بذلت قصارى جهدك لتحمليه على ذلك.

-أحمله؟ أحمله على حبي؟ ألهذه الدرجة أنا قبيحة؟

-لم أقصد ذلك، لا تغضبى، الحق أنه ليس مثلك، اهتمامه الحقيقي موجه للمسرح في المقام الأول.

-يعشق عمله، وما العيب في ذلك؟

-أتمنى أن تجعلي اهتمامك الأول موجها إلى الدراسة وحلمك. تصبحين على خير.

تركتها أمها وغادرت الحجرة في هدوء، توجهت (زهرة) إلى مرآتها، وتأملت وجهها متمتمة:

-نعم هو حلمي لا شك في ذلك! إني أؤمن به كما أؤمن بأي شيء في الدنيا.

وفي صباح يوم ما، جلست (فوزية) أمام الفرن، تتحدث مع (بديع) ناظر الوقف، يراقبهما (شحاتة) بنظراته الحادة الممتعضة، والعرق ينهمر على جبينه، حرارة غيرته أقوى من موقد الفرن، يحاول أن يسترق السمع دون جدوى، لقد كتب عليه أن يتعذب بالحنين والعشق، وضع (بديع) طربوشه على المنضدة أمامه، ورشف القليل من القهوة، ثم قال:

- أكيد. فما فائدة الفرن بعد الزواج؟ كما أنك سوف تعيشين مع البنات في بيتي أنا.

تنهدت (فوزية)، ونظرت إلى (فتحي) وهو يرقص بحركته الخفيفة فوق التشت النحاسي، ثم قالت:

- حسنا، سوف أخبر البنات.

-أود أن أبلغك بأمر هام.

-ماذا؟

– البيت مليء بالخدم، فلا حاجة لخادمتك (سفرجل)، فرؤيتها تبعث بداخلي قشعريرة ونفور.

ضحكت (فوزية)، ثم قالت:

– سفرجل؟ تلك المسكينة عقلها صغير، كما أن قلبها...

قاطعها مسرعا:

– (فوزية)، أنا لا أريدها في بيتي.

اختفت الابتسامة، وظهرت الدهشة والضيق على وجه (فوزية).

وبعد لحظات، اقتربت عربة (كارو) كادت تصدم (شادية)، وهي تجري وراء الصغار بجوار الفرن، صرخت (فوزية) وتبلدت في مكانها، جرى (شحاتة) مسرعا وأنقذ الصغيرة، توقفت العربة وتجمع المارة وعلت الأصوات، وبرزت رؤوس النساء من النوافذ، وبكت (فوزية) وأسرعت نحو صغيرتها تحملها بين ذراعيها باكية، قائلة:

– هل أنتِ بخير؟ أنتِ بخير؟

هزت الصغيرة رأسها بإيماءة، ونظرت (فوزية) إلى (شحاتة) شاكرة، واضعة يدها على عضلات ذراعيه في زهو، قائلة:

- تسلم يا (شحاتة)، تسلم من كل شر.

ابتسم (شحاتة) فرحا، ثم نظر إلى (بديع) متحديا، وملأ صدره بالهواء، وأخرجه في زفرة حارة.

استيقظت (زهرة) مفزوعة، تنادي في خوف:

-شادية، شادية.

أسرعت إلى باب الحجرة، فتحته ونادت:

-شادية، شادية.

خرجت (كوثر) من حجرتها، فسألتها (زهرة) عن (شادية)، فأجابت (كوثر):

- تلعب في الشارع بجوار الفرن.

بعد لحظات، دوّى صوت صراخ، فأسرعت (زهرة) نحو الشرفة، ورأت الحلم أمام عينيها حقيقة، سمعت أمها تقول:

- هل أنتِ بخير؟ أنتِ بخير؟

- تسلم يا (شحاتة)، تسلم من كل شر.

لقد تكررت الكلمات التي سمعتها في حلمها!

ثم رأت (بديع) ساكنا في مكانه ينظر لهما، تجمدت (زهرة) في شرفتها، صدرها يرتفع وينخفض، قلبها يدق بلا هوادة .

بعد أن تفرق المارة، وقف (فتحي) بجوار تشته النحاسي، ينظر إلى (بديع) ويتأمل هيئته، قد بدا على وجهه نظرات الغيرة والحزن.

(بديع) رجل أربعيني أنيق، طويل القامة، نحيل الجسد، أسمر البشرة، شاربه الغزير يخفي نصف ملامح وجهه، كان يعمل ناظرا لوقف (إسماعيل باشا)، وكان لديه أختا تكبره بعدة أعوام، تعيش في بيته بعد رحيل الوالدين، لم تحظ بقدر من الجمال يسمح للخُطّاب بطرق باب بيتها طلبا للزواج، ضاق (بديع) ذرعا بحالها، فطرق كل السبل أملا في العثور على العريس المنشود لها، كان ضيفا من ضيوف حجرة الصالون، عندما وقعت عيناه على (فوزية)، ذاب في جمال عينيها ووداعة ملامحها ورشاقة بنيانها، ورغم علمه بأنها تكبره بعدة أعوام إلا أنه لم يتردد في طلب الزواج منها، وبعد أن تم المراد، وتزوجت أخته من ثري يُدعى (الكيلاني) وتركت له البيت، أسرع (بديع) يزف البشري لـــ (فوزية)، وعرض عليها الزواج ثانية، فطلبت منه مدة من الوقت للتفكير في الأمر.

سارت (زهرة) بخطوات شاردة بجوار (يوسف)، عم الصمت للحظات ثم أسرع (يوسف) قائلا:

- صدفة، مجرد صدفة.

توقفت (زهرة) عن الحركة، ونظرت له غاضبة:

- صدفة؟! كل شيء أحلم به، يحدث في اليوم التالي وبنفس التفاصيل، وتقول لي صدفة؟!

- نعم، صدفة، خوفك الدائم على (شادية) وإحساسك أنها مسؤولة منك، مع علمك أنها تلعب في الشارع يوم الجمعة بجوار الفرن، وخوفك من عربات (الكارو) جعلك تحلمين هذا الحلم، ولأن (شحاتة) هو رمز الأمان بالنسبة لكم، حلمتِ بأنه سوف ينقذها، مجرد صدفة.

أسرعت (زهرة):

- وقطة سفرجل، هل كانت صدفة أيضا؟ لقد حلمت أنها ماتت، وبالفعل ماتت صباح اليوم التالي، أنت لن تصدقني، بالطبع، شيء لا يصدقه عقل، أنا مرعوبة، ولا أدرك معنى أو تفسيرا لما يحدث.

أسرع (يوسف) محاولا تهدئتها:

– لا تخافي من شيء، أنا هنا بجانبك.

ثم أسرع ساخرا:

– الأحلام لا تتحقق يا عزيزتي، أدرك أن البيت شكله مخيف، ولكن، لا يوجد شيء يثير الذعر.

هدأت (زهرة) وقالت:

–البيت!

ثم تنهدت قائلة:

– لا أحد يعلم سر هيئته، حتى أمي عندما سألتُها، قالت: إنها لا تعلم السبب، في صباح يوم ما، وجدت جدتي البيت على هيئته تلك، كانت أمي صغيرة، لا تعي ما يحدث حولها.

اندهش (يوسف)، وشرد قليلا ثم قال:

– غريبة، قال لي عم (إبراهيم العطار) هذا الكلام ولم أصدقه، لكن لقد قلتِ إن هناك سر ما بين أمك وأختك و(سفرجل).

–نعم، سر لا أستطيع فهمه.

– كيف سمحت أمك لـ (سفرجل) باستقبال الضيوف معها؟ معذرة، أنا لا أود التطفل، لكن مظهرها الرث ونظرات عينيها

المخيفة البلهاء تنفر أي شخص عاقل يحاول الاقتراب.

-لا أدري، أنا أخاف منها، ومنذ نعومة أظافري أتهرب من رؤيتها، بالرغم من ذلك، تعشقها (شادية)، وتفضل اللعب معها.

-وهذا المعمل، ألم تجدي بداخله ما يفك شفرة الغموض المحيطة بالمكان؟

-نعم، لم أجد بداخله شيئا.

ثم تنهدت، وقالت بصوت حزين:

- سأترك الأمور كما هي يكتنفها الغموض، ليس هناك أبغض من التعلق بالخيال والسعي وراءه.

- اطمئني؛ أنا هنا من أجلك.

هدأت (زهرة)، ونظر إليها (يوسف) نظرة غير قصيرة أثملتها، نظرة العاشق المتيم، ثم أسرع قائلا:

- لقد تأخر الوقت، هيا بنا.

تمنت (زهرة) أن يتوقف الزمن في تلك اللحظة، تمنت أن يتجمد كل شيء من حولها، تمنت أن يقترب منها ويقبل شفتيها، أن يلتهمها، أن يسكرها بنشوة الحب، ويغمرها بعشقه الفياض،

لطالما تمنت ذلك.

ترددت أنفاس المغرب في خمول، ودخلت (زهرة) البيت المظلم الهادئ بخطوات بطيئة، مرت أمام باب الصالون المغلق، سمعت أصوات الضيوف وضحكات (كوثر)، لم تكترث وولت ظهرها شطر ضجيجهم، واتجهت نحو السلم الخشبي، وصعدت درجتين ثم توقفت فجأة عندما رأت دخانا أسود يميل إلى الحمرة في الركن المظلم الموحش خلف السلم الخشبي، ارتفع صوت أنفاسها ويبس حلقها خوفا، وهبطت الدرجتين بهدوء، اقتربت من الدخان بخطوات خائفة مترددة، حدقت النظر أكثر فرأت هيكلا أسود ضخما وعينا مخيفة تحدق بها، صرخت صرخة مكتومة، وأسرعت بالهروب فتعثرت، وسقطت على الأرض، ثم أمعنت النظر مرة أخرى، ولكنها لم تجد سوى الظلام .

مرت الأيام، وتكررت الأحلام، عندما تفكر (زهرة) في شيء ما، تحلم به ويتحول الحلم إلى حقيقة، أمست في دوامة لا تهدأ ولا تسكن، ولَّى البِشْر والمرح من بين كلماتها، فترت حماستها، شعرت بالرهبة واعتزلت الناس، كانت تحبس نفسها داخل حجرتها تخشى النعاس.

و في ليلة قمرية، ارتفع صوت الشيخ (طه الفشني) فى بيت

(أم فوزية) مغردا منشدا (مولاي، كتبتَ رحمةَ الناس عليك فضلا وكرما، فالمرجع والمآل والكل إليك، والكل إليك عرب وعجم)، مر المارة معلقي الأعين بالبيت المخيف، شاخصي الأبصار في دهشة، يقول أحدهم متسائلا:

- هذه التواشيح، فى بيت (أم فوزية)؟ هل اقتربت الساعة؟

فيجيب الآخر:

- سبحان الله الهادي!! ربنا يتوب عليهن.

سمعت (فوزية) صوت الشيخ العذب، كانت جالسة مع ضيوفها بحجرة الصالون، صوته العذب الساحر ملأ البيت سكونا وطمأنينة، أنشد قائلا:

- ما لي عمل يصلح للعرض عليك، بل صار عدما، ارحم ذلي ووقفتي بين يديك.

أسرعت (فوزية) نحو حجرة (زهرة) غاضبة، فتحت الباب، وجدت (زهرة) جالسة بجوار (الجرامافون) شاحبة الوجه، جاحظة العينين.

- ما هذا؟

– الشيخ طه الفشني.

– عندنا ضيوف!

– اتركيه يا أمى.

أغلقت (فوزية) الجرامافون، وأمسكت (الأسطوانة)، توسلت لها (زهرة) باكية:

–أتوسل لك أن تتركي الأسطوانة، أتوسل لك أن تطردي الضيوف، الشر يسكن البيت.

–ماذا؟

– صدقيني، يوجد شر بالمكان، الشيطان يسكن البيت، لقد رأته (شادية).

– هل جُننتِ؟ أتصدقين خيال تلك الصغيرة؟

اتجهت (فوزية) نحو الباب وأسرعت وراءها (زهرة) تحاول أن تأخذ منها الأسطوانة، وأبت (فوزية) قائلة:

–اذهبي إلى مخدعك لتلتمسي في أحضان النوم راحة من عناء التفكير وهواجس الخيال.

في صباح اليوم التالي، جلست (فوزية) مع بناتها لتناول وجبة

الإفطار، واكتفت (زهرة) كعادتها بفنجان القهوة الساخن لتقاوم النعاس، قد بدا عليها الإعياء الشديد، وظلت تراقبها (فوزية) بنظراتها بين الحين والآخر، ثم تنهدت قائلة في حسرة:

– واحدة لاتفارق الكأس مخمورة، والأخرى لاتفارق القهوة وتخشى النعاس، يا حسرتي.

لم تأبه (زهرة) لحديثها، تنهدت (فوزية) مرة أخرى ثم قالت:

– حسنا، أود أن أبلغكم أن (بديع) ناظر الوقف قد طلب يدي للزواج؟

امتعضت (كوثر) قائلة:

– وهل وافقتِ؟

– نعم، سوف أغلق الفرن، ونترك البيت ونذهب للعيش معه في بيته.

فرحت (زهرة) كثيرا، وقالت:

–سوف نترك البيت؟!

حدجتها (كوثر) بنظرة قاسية:

– هل هذا هو كل ما يشغل بالك؟ إننا سنترك البيت؟

ثم نظرت إلى أمها مستنكرة:

- هل تعلمين كم أبلغ من العمر؟ لقد تجاوزت الثالثة والعشرين، وأنتِ ما زلتِ تبحثين عن الزواج؟ مِن الأولى أن تبحثي عن عريس لابنتك، كيف سيتقدم أحدهم لخطبتي، وأمي عروس تتزوج كل يوم؟

- لست السبب في تأخر زواجك يا عزيزتي، أنتِ لا تفارقين الكأس، من سيتقدم للآنسة المخمورة؟

ثارت (زهرة) قائلة:

- كَفَى، لا يصح هذا الكلام أمام (شادية)!

ثم أمسكت بيد (شادية)، وتركت لهما المكان، ضربت (كوثر) المنضدة بيدها غضبا، وقالت:

-حسنا، تزوجيه، هنيئا لك به.

جلست (فوزية) بجوار (فتحي) أمام الفرن، قال (فتحي) حزينا: -وهل وافقتِ؟

- من أخبرك يا (فتحي)؟

- (شحاتة)، بلغ مسمعي صوت أنينه بالأمس في (الخمارة)

ينعي حاله، وهو يبكي كالنساء.

اعتدلت (فوزية) في جلستها، ونظرت إلى (شحاتة) بالخلف، وهو واقف أمام موقد الفرن يراقبها بطرف عينيه، ثم قالت:

– هو أيضا عرض عليَّ الزواج هذا الصباح؟ ماذا أفعل؟

نظر لها (فتحي) نظرة حزينة موجوعة، كما لو أنه تلقَّى طعنة في قلبه:

– تسألينني يا (فوزية) ما العمل؟ هل تذكرين عندما جئت إليك منذ أكثر من عشرين عاما متوسلا لنهرب سويا؛ نهرب من أمي وأمك؟

– المرء لا يملك قَدَرَه يا (فتحي).

– لقد اخترتِ الشقاء.

– نصيب ومكتوب، حكايتنا مكتوبة والأدوار متوزعة.

هز (فتحي) رأسه متمتما:

– حقا النصيب والمكتوب، فالمرء لا يملك قدره وإلا فتحنا لأنفسنا أبوابا من السعادة والصحة والمال.

– مشكلتي الحقيقية هي البنات، (كوثر) عيارها فلت.

- اُشكميها.

- لا أستطيع، غبية وعنيدة، أنا أريد رجلا وسندا، هل تعلم يا (فتحي) رؤيتك في الصباح كل يوم واقفا على التشت النحاسي، يملأ قلبي بالسكون والطمأنينة، مطمئنة لأنك قريب.

ضحك (فتحي) ساخرا:

- أنا؟ تطمئني بوجودي أنا؟ أنا لست بـ (شحاتة)، أنا رجل كهل، أنهك الزمن جسدي، وأنخر العمر عظامي.

- ليست القوة، إنما القوة في الحب، الحب هو السند، أنت سندي وكتفي.

-(شحاتة) بيحبك، مجنون بعشقك.

-(شحاتة) يعشق الجسد، العاشق الحقيقي لا يهدد ولا يتوعد.

دبت القوة في عضلات (فتحي) الضئيلة منزعجا متسائلا:

- تهديد ووعيد، كيف؟

وضعت (فوزية) يدها الرقيقة على كتفه، قائلة:

- لا تُلقِ بالا، لا تخف عليَّ.

أسرع قائلا:

- لابد وأن تعلمي أنني هنا من أجلك وسأظل ما حييت بجوارك.

ابتسمت ابتسامة هادئة:

- أعلم.

ساد الصمت للحظات، ولمح (لوقا) الدموع تترقرق بعيني (فتحي)، فأسرع متسائلا:

- ماذا حدث في الماضي حال بينك وبين الارتباط بها؟

تنهد (فتحي) واعتدل في جلسته،ثم قال:

- أمي؛ أمي كانت تكره أمها، شأنها شأن نساء الحارة، (أم فوزية) كانت صارخة الجمال متقدة الذكاء وعذبة الحديث، كانت قوية لا تأبه ولا تكترث بأحاديث النساء، وكل رجال الحارة كانوا يلهثون وراءها، كانت أمي دائمة الشجار مع أبي بسببها وبسبب كعكها اللذيذ، فقد كانت تخبز الكعك، وتقوم ببيعه أمام باب بيتها قبل بناء الفرن، زبائن البيت وعلاقتها بفتوة الحارة وقتها (أحمد الدسوقي)، وكذلك هيئة البيت التي تبددت بين عشية وضحاها جعلها مضغة للأفواه، بعد رحيل أبي، صارحت أمي بحبي لـ (فوزية) فثارت وبكت قائلة:

-تريد أن تتزوج ابنة الزانية؟ هل تريد أن تحل اللعنة على بيتنا؟ سأغضب عليك ليوم الدين لو فكرت في الارتباط بها.

لم أكترث لتهديدها، وطلبت يد (فوزية) من أمها، سخرت مني ومن طلبي، قائلة:

-لن أزوج ابنتي لمبيض النحاس.

بعدها طلبت من (فوزية) أن نهرب سويا، كانت صغيرة جميلة الوجه هادئة، كانت تخاف من أمها ومن بطشها، خافت ورفضت الفكرة، وبعد عدة أيام تزوجت من فتوة الحارة وفتوة أمها (أحمد الدسوقي)، وأنجبت منه (كوثر)، كان عجوزا جافا، لقد أرغمتها أمها على الزواج من هذا الثور العجوز! أصاب قلبي اليأس والحزن، وزهدت في الدنيا والحياة.

بعد وفاة (دسوقي) تزوجت من خليفته بأمر من أمها، ثم رحلت أمها وطالت المسافات، وعندما اقتربت من الأربعين، صممت أمي رحمة الله عليها أن أتزوج، وبعد زواجي بأسبوع رحلت (أمي) عن عالمنا، رحلت (أمي) ورحلت (أمها)، لم يتبقَّ لي سوى ذكريات تلك الأيام، يكفيني القرب منها ورؤيتها كل يوم.

أسرع (لوقا) متسائلا:

- وماذا عن الضيوف؟

بدا الحزن على وجه (فتحي):

-ضيوف الصالون هم ضيوف البيت من أيام أمها (أم فوزية).

- هل قمت بسؤال (فوزية) عنهم؟

-بالطبع، ولكن لم أصل إلى إجابة تشفي العقل والفؤاد، كل ما فهمته أن سبب زيارتهم سر لا تستطيع البوح به، كما أنها أقسمت لي أن الزوار لا يسعون وراء المتعة.

- وهل صدقت كلامها؟

أسرع (فتحي) قائلا بصوت غاضب:

- بالطبع، والسبب أن في بعض الأحيان لا أرى سوى مجموعة من النساء فقط، كما أن (فوزية) لا تكذب عليَّ، كان من الممكن أن تقول لي سببا وهميا، بيت (أم فوزية) مليء بالأسرار والسبب أمها.

تنهد (فتحي) وشرد ذهنه قليلا، ثم قال:

- نكتفي بهذا القدر اليوم يا (خواجة)، سأسرد لك بقية الحكاية غدا.

أقبل الليل بوحشته وسكونه، اتجهت (فوزية) نحو المطبخ،

ونادت على (سفرجل):

-(سفرجل)، تعالي معي إلى المعمل.

خرجت(كوثر) من حجرة الصالون، ماسكة بكأسها مترنحة، تحدق بهما بعينيها المخمورتين في ذهول، قائلة:

-سفرجل فقط! وأنا؟

أجابت (فوزية) غاضبة:

-عندما تكفين عن الشراب.

تركتها (فوزية)، ولحقت بها (سفرجل) عارجة نحو المطبخ.

نضح شيش نافذة (زهرة) بوميض البرق في موجات قصيرة متتالية، (زهرة) كانت نائمة بمفردها، اقترب الهيكل الأسود منها رويدا هامسا بصوت مخيف:

- زهرة.

فتحت (زهرة) عينيها الناعستين ببطء، لم تجد شيئا، ثم ومض البرق ثانية فكشف عن معالم الهيكل الأسود الضخم، قامت مفزوعة وصرخت:

- مَن؟ مَن أنت؟

عادت الحجرة إلى سالف ظلمتها، وارتفعت درجة الذعر إلى غير حد، فمدت يدها مسرعة تفتح نور (المصباح) فلم تجد شيئا. بعد لحظات دخلت (فوزية) مسرعة:

- ماذا بك؟ ماذا حدث؟

ظلت تحدق (زهرة) بالغرفة يمينا ويسارا، ترتجف خائفة، قائلة:

- لقد رأيته، لقد رأيت...

- ماذا؟

-رأيت كابوسا.

هدأت (زهرة) قليلا، وأفرغت كوب الماء في جوفها، وظلت مقيدة متجمدة في موقعها ذاهلة، تدرك تماما أن ما رأته حقيقة ليس كابوسا أو حلما عابرا، بدا القلق على وجه (فوزية)، ثم قالت بصوت هادئ:

- حاولي أن تأخذي قسطا من الراحة.

ثم تركتها (فوزية)، وهي ما زالت جالسة على سريرها خائفة.

رجع (فتحي) إلى بيته مهموما، فيض الذكريات أنكأ جرحا في فؤاده أوشك أن يلتئم، جلس جانبا على أريكته شارد الذهن،

فسألته زوجته السمراء (قشطة):

–ماذا حل بك يا رجل؟ لا تريد الطعام ولا اللعب مع الصغار، هل أصابك مكروه؟

– لا، أنا بخير.

– إذن ستخلد إلى النوم؟

– نعم.

– أحتاج إلى المال.

– الرحمة يا (قشطة)، المصاريف زادت.

– طبعا، البركة في (فوزية).

– لن أكمل معك هذا الحديث. ولن أسترسل في ذلك الشجار ثانية.

ثم قام مترنحا نحو غرفته، وألقى بجسده النحيل في فراشه، وذهب في سبات عميق.

في صباح اليوم التالي، وقف نشيطا يفرك بقدميه التشت النحاسي، متحمسا ليكمل حديثه مع (لوقا)، قائلا:

– نبتت بذرة الحب بين (زهرة) و(يوسف)، لقد صرح لي مرة

أنه طلب يدها للزواج.

كان الوقت إبان الظهيرة، جلست (زهرة) بجوار (يوسف) تحت شجرة عتيقة أظلتهما من وهج الشمس، كانت ذاهلة تائهة، وضع (يوسف) يده على كتفها مواسيا، قائلا:

- لن أتركك، بعد انتهاء العرض الأول من المسرحية، سوف أسرع إلى أهلي بالشرقية، وأفاتحهم في موضوع زواجنا.

اندهشت (زهرة) فرحة:

- زواجنا؟

- نعم، أنا أحبك، لن أتركك في ذلك البيت الملعون، نتزوج بعد انتهاء امتحانات التوجيهية.

-وأهل الحارة؟ ألم تأبه لكلام الناس؟ هل يعقل أن تتزوج من بيت أم فوزية؟

- ولِمَ لا؟ فليقولوا ما يحلو لهم. أنا أحبك ولا أهتم لأحاديثهم.

زادت فرحة (زهرة)، وأسرعت قائلة:

- ونأخذ(شادية) معنا؟

ارتبك (يوسف)، ثم قال:

- (شادية)؟ إنها مسؤولية كبيرة و...

قاطعته متحمسة:

- لا تقلق، سوف أعمل بـ (شيكوريل) أو أخيط الملابس وأساعدك في...

قاطعها مسرعا:

- سوف نتحدث لاحقا، كل ما أريده منك أن تجتهدي في دراستك.

هدأت (زهرة) وابتسمت ابتسامة رضا، شعرت بأنها ولدت في عالم جديد، وأن نسائم الأمان بدأت تهفو إلى وجدانها، فالراحة لذة لا يذوقها إلا من مر بتجربة مريرة.

عادت إلى البيت قبيل الغروب، وتجمعت السحب في السماء، حدثها قلبها بأن أحداثا ستقع فالسحب لا تتجمع من عدم، دخلت البيت وتجمدت ذاهلة أمام باب حجرة الصالون، عندما رأت (كوثر) في أحضان (بديع)، يلتهم شفتيها بعنف بعد أن اكتوى بشواظ نيران العشق والرغبة، يلتهم جسدها بقبلاته الساخنة في معركة ثائرة العنف، ثم وقعت عيناه على غير إرادة منه على (زهرة) واقفة متجمدة في مكانها، فابتعد مسرعا عن (كوثر)،

وساد الصمت في الحجرة لعدة دقائق كأنها ساعات.

أسرع (بديع) بارتداء معطفه وطربوشه متجها إلى الباب بخطوات مرتبكة مسرعة، وغادر البيت في هدوء، وظلت (كوثر) في مكانها تنظر إلى (زهرة) نظرة باسمة باردة مستفزة، غضب (زهرة) لا يدفعها إلى الانفعال والمشاجرة ولكنه يشل حركتها ويعطف اندفاع أعصابها إلى داخلها، فقالت بصوت ممرور بائس:

– كيف يمكن للمرء أن يخون لهذه الدرجة؟ أنتِ شيطان مثل ذلك الذي يقطن البيت، مع (بديع)؟ الرجل الذي سيتزوج أمك؟

أسرعت (كوثر) بتحد وقسوة:

– لا تزيدي، أنتِ مثلي، كل يوم مع (يوسف)، ولو كنتِ أعجبتِ غيره كنتِ ستخرجين معه، يا عزيزتي، نحن بنات (فوزية) لا نختلف كثيرا عن بعض، نشعل بركان العشق بداخلهم ونستمتع برؤيتهم وهم يكتوون بشواظه.

ازداد غضب (زهرة) قائلة:

– لا، أنا لست مثلك، ولن أكون ما حييت، لقد اتفقنا أنا و(يوسف) على الزواج، وسوف يتقدم لخطبتي في بداية الصيف.

اختفت الابتسامة، وظهرت ملامح الحزن والغيرة على وجه

(كوثر)، قائلة بصوت موجع:

-سيتقدم لخطبتك؟

- نعم، سأترك ذلك البيت الملعون، وسوف أنقذ (شادية) من ذلك البؤس الذي رأيته.

قاطعتهما عودة (فوزية) مع (شادية) و(سفرجل) بعد شراء مستلزمات البيت، وعرّجت (سفرجل) نحو المطبخ، تتبعها (شادية) بخطواتها الصغيرة الشقية، نظرت (فوزية) لهما ثم قالت:

- ما الأمر؟ هل تشاجرتما مجددا؟

أجابت (كوثر) ببرود:

- (بديع) كان هنا، يبلغك أنه سيمر عليك غدا لشراء مستلزمات العرس.

ثم ضحكت، ومرت بجوار (زهرة) ونظرت إليها بتحد وغلظة، وصعدت إلى غرفتها كأن شيئا لم يحدث، كانت تدرك تماما أن (زهرة) لن تقول شيئا.

اقتربت (فوزية) من (زهرة)، هامسة:

- ماذا حدث؟ هل تشاجرتما؟

- لا، أبدا.

- أريد أن أتحدث معكِ في أمر هام.

استمسكت (زهرة) بمظهرها الرزين، وظلت صامتة مستمعة، فاسترسلت (فوزية) حديثها قائلة:

- (شحاتة) طلبني للزواج. عندما علم بأمر (بديع) فقد عقله، وطلبني للزواج بطريقة لا أستطيع رفض طلبه.

أسرعت (زهرة) مندهشة:

- ماذا؟

فتحت (فوزية) باب حجرة الصالون، ودخلت وراءها (زهرة)، وجلست بجوار (الجرامافون)، ثم قامت برش القليل من العطر على منديلها الوردي، ومسحت وجهها برقة، وقالت بنبرة مرتعشة حزينة:

- (بديع) بالنسبة لي كان (فرصة)، فرصة للخروج من الحارة والبيت، فرصة لبداية جديدة، لكن (شحاتة) أشعر بحبه منذ زمن غير قصير، عندما علم بطلب (بديع) الحزن شتت عقله، تجرأ وتقدم لخطبتي، نبرته لا تخلو من الوعيد والتهديد.

نظرت (زهرة) لها مليا منزعجة، ثم غمغمت متسائلة:

- تهديد ووعيد؟ كيف؟

-لا تهتمي، المهم هو أنني لا أستطيع رفض طلبه، لا يمكن الاستغناء عنه، (شحاتة) هو ظهري وعكازي، أردت أن أخبرك بأنني اخترت (شحاتة)، وبالتالي سنظل هنا، في بيتنا، أعلم رغبتك الشديدة في مغادرة البيت والحارة، ولكن مَن منا يختار قدره؟

ساد صمت كالموت، وسارت (زهرة) بخطوات هادئة نحو البهو متمتمة:

- نعم. مَن منا يختار قدره؟ لله الأمر من قبل ومن بعد.

ظلت (فوزية) ساكنة على كرسيها بجوار الجرامافون، حزينة يائسة شاردة، ترددت كلمات (شحاتة) في رأسها وبأذنيها:

- لقد صبرت كثيرا أملا في الفوز بقلبك، أنا من حقي الفوز بك وبقلبك، أنا (شحاتة)، سندك وظهرك، أنا من يقدر أن يؤنس وحشة وحدتك، أنا أفضل منه، مَن (بديع) هذا؟ ذلك المتعجرف المخنث، هو لا يستطيع أن يمنحك الحب والمتعة، لا يستطيع أن يملأ حياتك وفراشك بالدفء، هو ليس لديه القدرة على حمايتك، لقد قمت بدفع الأذى بعيدا عنك عدة مرات، لا تنس ذلك، أتظنين

أنني أجهل ما يحدث وراء تلك الجدران العالية البالية؟!

شمل الحارة ظلام الليل، وتوارت النجوم خلف السحب، وارتفع مواء القطط ونباح الكلاب في نوبات متقطعة، وذهبت (زهرة) في سبات عميق بعد صراع طويل مع سلطان النوم، ورأت في حلمها (بديع) و(شحاتة) يتشاجران، ترامت ضجة المتجمهرين خارج البيت، ووجّه (شحاتة) لطمة إلى وجه (بديع) النحيف المرسوم القسمات ففقد توازنه وسقط على جنبه، وطار (طربوشه) بعيدا، ومال (شحاتة) عليه فصفعه على قفاه، وبادره بضربة قوية في بطنه فترنح (بديع) متألما، وظل (شحاتة) يكيل له الضربات المتتالية غير مبال بزجر المشاهدين، وحضرت عربة الإسعاف، ونقلت المسكين إلى المستشفى بين الحياة والموت.

في الصباح، توجهت (زهرة) إلى الفرن، متأبطة حقيبتها، الحارة كانت هادئة آمنة لا يكدر صفاءها شيء، وقفت (زهرة) أمام (فوزية) لتأخذ (المصروف)، تترقب (شحاتة) وهو يعمل بجد والعرق ينهمر على جبينه، تنتظر الفرج بما يشفي الصدر ويفك الكرب ويريح العقل والقلب ويبل الفم، بدا لها ضعيفا رغم تجهمه، فاقت من شرودها حينما قالت (فوزية):

- (زهرة) (زهرة)، ماذا أصابك؟

-لا شيء.

-عقلك شارد.

-أنا بخير.

-خذي المصروف إذن.

- شكرا يا أمي.

أخذت (المصروف) ونظرت إلى (شحاتة) نظرة أخيرة سريعة، ثم رحلت في هدوء.

بعد عدة ساعات، أرسلت الشمس أشعتها الدافئة من سماء صافية، والتف المارة حول الفرن، وفتحت النوافذ وبرزت رؤوس النساء، وأقبل الصغار يجرون ويهللون، والكبار شاخصي الأبصار في شماتة، وعادت (زهرة) من المدرسة، رأت الحلم أمام عينيها حقيقة، و(فوزية) واقفة بين الجموع تائهة بعين حائرة حزينة، بجوارها (فتحي) مواسيا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

اقتربت منها (زهرة) متسائلة:

- ماذا حدث يا أمي؟

- لا أعلم، ضرب (شحاتة) (بديع) ضربا مبرحا، خرجت من البيت بعد سماع صراخ المارة، وجاءت عربة الإسعاف لنقل (بديع) إلى المستشفى، فقد كان فاقدا الوعي غارقا في دمه، وحضرت (الشرطة) وأخذت (شحاتة).

هبت نسمة هادئة لمست وجه (زهرة)، انبعثت في أعماقها راحة لم تشعر بها منذ أمد، وارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة رقيقة، اختفت سريعا بعد ما التقت عيناها بعيني (كوثر) بين الجموع، قد التمعت في عينيها نظرة غضب سريعة كالبرق في السحاب، وسرعان ما استردت توازنها، ودخلت البيت بخطوات فرحة، يبدو على وجهها ملامح السعادة والرضا، متمتمة:

- بالطبع ليست صدفة، ليست صدفة يا (يوسف)! لن يصدق ما حدث كالعادة، المهم أن الحلم أصبح حقيقة، كل ما أفكر فيه أحلم به ثم يتحول الحلم إلى حقيقة، إنها معجزة لا شك، ولكن.

شرد ذهنها قليلا وقطب جبينها، وقالت لنفسها متمتمة:

-ماذا لو أخطأت؟ ماذا لو كان الحلم وقحا خبيثا؟ ماذا لو صار كابوسا؟ ماذا لو؟

صمتت الأفكار فجأة، لقد كان البهو كله مضاء بنور النهار، إلا

تلك الرقعة السوداء الراكدة خلف السلم الخشبي، اقتربت (زهرة) فسمعت صوتا كفحيح الأفاعي، ردعها الخوف عن الاقتراب أكثر فتوقفت، ثم اقتلعت بذور الرهبة من قلبها الصغير واقتربت، كلما اقتربت من السلم ابتعد الظلام ، تقترب ويبتعد، تقترب ويبتعد، وكأنه يختبئ منها وراء السلم، مالت برأسها لترى ما يوجد خلفه، وفجأة اغتصبها نداء (شادية) بصوت رقيق:

- زهرة، زهرة.

تبدد الظلام فجأة، وحل النور مكانه مجللا بهدوء، لم يكدره سوى صوت نداء (شادية) ثانية:

- زهرة، زهرة، أين أنت؟

و لكن لم يفلح نداؤها في تلطيف هذا الجو المشحون المقطر بالظلام والأسرار.

مرت الأيام كئيبة، أُغلق الفرن بعد حبس (شحاتة)، (فوزية) كانت حزينة بائسة تائهة، فجأة خانتها الحياة، فراق (شحاتة) هدد حالها وزلزل كيانها، خوفها من أهل الحارة جعلها تخشى مقابلة الضيوف، فقامت بإغلاق حجرة الصالون بشكل مؤقت حتى تعثر على (فتوة) يقوم بدور (شحاتة)، بدأت تنهشها نظرات

الفضوليين، فلم تجد مفرا من التودد مرة أخرى إلى (بديع)، فقد يكون الأمل الأخير للخلاص، وبالفعل قامت بزيارته في مستشفى العباسية، كان راقدا في سريره، يبدو عليه الإعياء الشديد، شعرت بوجومه وراء ضحكته المفتعلة، أخبرها بأنه يعاني من كسر في يده اليسري وساقه وضلع بقفصه الصدري، سألته عن سبب شجاره مع (شحاتة)، فثار غاضبا:

- لا تنطقي بإسم هذا الأحمق أمامي ثانية. لقد أخبرني أنك وافقتِ على الزواج منه! هل هذا صحيح؟

صمتت للحظات، وبدا على وجهها الارتباك، قطب جبينه غاضبا، وقال مندهشا:

-إذن كلامه صحيح.

أسرعت قائلة:

-لا، لقد عرض على الزواج، وأنا.

-أنتِ وافقتِ؟

-لا.

-لا تكذبي، لقد بدا على وجهك الارتباك، كيف فضلتِ هذا

الوحش عليَّ؟

اعتصمت بالصمت، وأسرع قائلا:

– والآن بعد أن تم حبسه، جئتي لزيارتي!

–لا، لقد جئت لأطمئن.

قاطعها مسرعا:

– أرجوك اذهبي ولا تكرري الزيارة.

تركته (فوزية) غاضبة، فقد أغلق آخر باب للنجاة.

جلست (فوزية) بجوار (الجرامافون)، تحاول أن تقرأ طالعها بفنجانها، بدا عليها القلق والتوتر، اقتربت منها (كوثر)، قائلة:

–هل صحيح ما سمعته؟

–ماذا؟

–هل طلب (يوسف) يد (زهرة) للزواج؟

تنهدت (فوزية)، وقالت:

– نعم، لقد طلبها مني، منتظرا انتهاء الامتحانات، ليتقدم لها رسميا.



–وماذا كان ردك؟

–قلت له الوقت غير مناسب للخوض في هذا الحديث!

ظهر الضيق على وجه (كوثر)، ثم قالت:

– والفرن؟

– أبحث عَمَّن يقوم بعمل (شحاتة).

– الحل بيدك، نفتح باب بيتنا للزوار ثانية.

– ليس الأمر سهلا كما تظنين.

– ولِمَ لا؟ اليوم جاء رسول من بيت (الكيلاني) و...

قاطعتها (فوزية) بصوت حازم:

– لن نستقبل الزوار حتى نعثر على من يقوم بدور (شحاتة).

– ليس لدينا المال الكافي للانتظار.

– أظنك لا تدركين ما أتحدث عنه!

غضبت (كوثر)، وغادرت الصالون مسرعة، تمتمت (فوزية)، قائلة:

– غبية!

أقدم المغرب بأنفاسه تتردد في خمول، جلس (يوسف) على كرسي بجوار (عم فتحي) بالقرب من المقهى، يستمعان لإنشاد الشاعر ماسكا بربابته خالقا هالة من الخيال، وانعقد دخان النرجيلة المتصاعد حول الفانوس سحبا بيضاء، ثم اقترب غلام صغير، وألقى بورقة بيضاء ملفوفة بجوار (يوسف) وفر هاربا، التقطها (يوسف) ونظر يمينا ويسارا، فلم يجد الغلام كأنه ذاب في الظلام، كانت رسالة من (زهرة) تقول فيها:

- أريدك في أمر هام، سأنتظرك في الحديقة الخلفية للبيت، الباب الخلفي مفتوح، أرجوك لا تتأخر.

شعر (يوسف) بالقلق، ونظر إلى البيت المظلم المخيف نظرة طويلة مترددة، ثم استعاد هدوءه، سأله (فتحي) في فضول:

- ما الأمر؟

-لا شيء.

ثم انسحب في هدوء، واتجه بخطوات مترددة نحو الباب الخلفي للبيت فوجده مفتوحا، كان الظلام يغشى الحديقة السابحة في سكون رهيب، ذلك السكون الذي يرتجف منه المرء ويهلع لم يقطعه سوى نقيق الضفادع كأنه استغاثات متتالية، ثم سمع صوتا

هادئا مناديا في همس:

- يوسف، يوسف!

اقترب (يوسف) نحو الصوت مطمئنا:

- زهرة؟ أين أنت؟

فشعر بيد رقيقة تلمسه وتجذبه نحوها بلطف، وجسدها يقترب من جسده فخفق قلبه بشدة، وقبلته قبلة أسكرته فخضع لشهوته المكبوتة، وتناثرت إرادته، وانجرف في تيار الرغبة الجارف وبحره الفياض فأصابته النشوة، واستسلم للنداء المطرب الحالم، واندفع كمن لطشت الخمر رأسه، والتهم شفتيها بقوة، ثم هلع عندما سمع صوت (زهرة)، واقفة وراءه صارخة ممرورة بالغدر:

- يوسف!

فتجمد في موضعه، ثم نظر إلى الصوت اليائس، فوجد (زهرة) ماسكة بمصباح، انعكس نوره الراقص على وجهها الغاضب، تنظر إليه نظرة الطائر الجريح المترنح، وقد بدت في عينيها نظرة عتاب أليم، وانساب الدمع من مآقيها، والتفت (يوسف) إلى صاحبة الجسد الفاتن بين ذراعيه فوجد (كوثر)، ابتعد مسرعا خجلا وكأنه في النزع الأخير من حياته الراهنة، واقتربت (كوثر) منه في دلال

لتمسح أحمر الشفاه من على شفتيه، فأبعد يدها عنه بعنف وازداد ارتباكه، ونظرت (كوثر) إلى (زهرة) في خسة، واقتربت منها هامسة مبتسمة ساخرة:

- هذا هو الرجل الذي تقدم لخطبتك؟ مسكينة!

ثم تركتهما وسارت بعيدا، لم تأبه (زهرة) لها، لم تسمع ما قالته، ظلت متجمدة في مكانها، نظراتها المكلومة تصفع (يوسف) بازدراء، لقد أمست الحياة شرا لا يطاق، وأجهشت في البكاء، فأسرع (يوسف) متوسلا:

- صدقيني، أنا كنت أظنها أنت.أنا.

تركت (زهرة) الفانوس جانبا، وفرت هاربة، لقد سحقتها ظلمة الليل، وظل (يوسف) مناديا متوسلا:

- زهرة، زهرة، اسمعيني أرجوكِ.

وقفت (كوثر) أمام مرآتها، تنظر إلى نفسها نظرة حزينة، تنحي جمالها تحت قناع الكدر والهموم، واندفعت (زهرة) تجري في الدهليز بين الحجرات تلاطمها الجدران، تراقبها (سفرجل) بنظرتها الهادئة الغامضة وابتسامتها البلهاء، دخلت (زهرة) حجرة (كوثر) مندفعة ثائرة:

- أنت شيطان، شيطان مثل ذلك الذي يقطن البيت، أنا أكرهك، لماذا تحاولين دائما سرقة كل ما هو جميل مني؟ لماذا؟

دخلت وراءها (فوزية) مندهشة متسائلة:

- ماذا حدث؟

لم تأبه (زهرة) لوجود أمها، وظلت تصرخ في وجه (كوثر):

- أنا أكرهك.

تبلدت (كوثر) في مكانها، وتكرر سؤال (فوزية):

- ماذا حدث يا (كوثر)؟

تبدد قناع الضعف والهم، وتجلّى وجه الجبروت والقدرة، قائلة بصوت غير مكترث:

- حبيب القلب خانها!

ارتفعت درجات الغضب إلى غير حد، وثارت (زهرة) بصوت قوي صارخ:

- أنت الخائنة، أنت مثل الحرباء، كل يوم مع رجل حتى صرنا مضغة للأفواه، بالأمس في أحضان (بديع) واليوم مع (يوسف).

صعقت (فوزية)، وقالت بصوت مندهش متقطع:

- مع مَن؟ مع (بديع)؟

نظرت (كوثر) إلى أمها نظرة تحد غير مكترثة، نظرة دقت برأس (فوزية) كالمطرقة، أسرعت (فوزية) بصوت مرتعش النبرات من الحنق:

- لماذا؟ مع (بديع)؟ لماذا؟ هل تعشقينه؟

ابتسمت (كوثر) واقتربت من (فوزية) بخطوات واثقة هادئة وقالت هامسة:

- بالطبع لا، إنما فعلتُ ما فعلته، لأني أكرهك.

-تكرهينني؟

-نعم أكرهك، وأكره ذاتي، أكرهكم جميعا.

صعقت (فوزية)، وترقرقت الدموع بعينيها:

- لماذا؟ كيف نبت بداخلك كل هذا البغض والجحود؟ ماذا فعلت بك؟ يا لك من جاحدة!!

ظلت (زهرة) في مكانها تائهة ذاهلة تسمعهما في صمت، وقالت (كوثر) حانقة بصوت ممرور موجع:

- ماذا فعلتِ؟ أتسألينني ماذا فعلتِ؟ منذ نعومة أظافري، وأنا

أشعر بكرهك لي، ليس ذنبي أنك تكرهين أبي، وأن جدتي أرغمتك على الزواج من فتوتها، أشعر بحبك لـ (زهرة) و(شادية)، بخوفك الدائم عليهما، وحلمك بنجاح حضرة (الأفوكاتو) زهرة، دائما تقولين: لا أريد (زهرة) أن تقابل الضيوف، لا أريد (شادية) أن ترى بؤسا أو شقاء.

ثم أجهشت في البكاء، قائلة بصوت متقطع:

- لماذا لم تثوري على عندما رأيتِني أتجرع كأسي الأول؟ لماذا لم تتكبدي العناء مثل أي أم تخشى على ابنتها؟ لماذا تركتِني فريسة سهلة للخمر وعالم الملذات؟

عقد لسان (فوزية)، وازدردت ريقها بصعوبة وألم، واسترسلت (كوثر) بصوت باكٍ ضعيف:

-كيف مات أبى؟ كيف رحل (أحمد الدسوقي) عن دنيانا؟ لا أستبعد وجود اتفاق بينك وبين (سفرجل) للتخلص م...

أسرعت (فوزية) ووضعت يدها فوق فم (كوثر) لإسكاتها:

- لا، لا، أنتِ فاهمة غلط، أقسم لك، كان حادثا، مات مختنقا ببذرة ثمرة المشمش، ليس لنا يدٌ في ذلك.

ضحكت (كوثر) ساخرة:

- بالطبع، لابد أن يكون موته إثر حادث!

ارتفع صوت بكاء (فوزية) ونحيبها، وجلست على الأرض فيما بين الفراش والكنبة، لم تأبه (كوثر) لبكائها، وقالت:

- حاولت كثيرا أن أبصق على الماضي بكل ما فيه، حاولت أن أسدل ستارا عليه لا ينضح بذكرى، ولكن، هيهات.

ثم تركت الحجرة لهما في هدوء، ظلت (فوزية) في مكانها، اتكأت بمرفقيها على ركبتيها، ودفنت وجهها في راحتيها، وأمست تهتز مع نبرات نحيبها، متمتمة بكلام غير مفهوم، ثم قالت باكية:

- لم أفعل ذلك.

بُعثت قشعريرة بجسد (زهرة) النحيل، أصبحت كمن ضلت طريقها في صحراء مقفرة، لا تكاد تعي شيئا مما يقال حولها، وليس هذا هو الوقت المناسب للجدال، ليس هناك أبغض إلى الإنسان من رؤية الحقيقة، فقد تكون الحقيقة مرعبة!

في الهزيع الأخير من الليل، غرق البيت في وحشته وسكونه وآلامه، سكون لم يكدره سوى صوت خطوات (سفرجل) العارجة ذهابا وإيابا بشكل غامض مزعج، حتى ثارت (فوزية) طالبة إياها أن تتوقف وتخلد إلى النوم، ومع أول خيط أبيض في السماء، هزت

جدران البيت أصوات النحيب والبكاء، فتحت النوافذ وتطلعت الأعين، وتجمع المارة حول البيت والفرن، وهرول (فتحي) مصفر الوجه مذعورا بين الجموع، وارتفع صوت صراخ (فوزية):

- آه يا (كوثر)، آه يا حبيبتي.

كان الجميع يحاول استيعاب ما يحدث، ودخل (فتحي) البيت مهرولا، رأى (فوزية) جالسة على الأرض، بجوارها (كوثر) غارقة في بركه من دمائها، والسلم الخشبي مكسور أعلى درجاته، و(شادية) واقفة في الجوار ترتجف خائفة، فأسرع (فتحي) نحوها واضعا يده على عينيها، وبالجوار وقفت (سفرجل) تبكي وتصرخ، تجمد (فتحي) في مكانه، لاهث الأنفاس، محتقن الوجه من تأثير المجهود والفاجعة، وبعد لحظات، خرجت (زهرة) من غرفتها حافية القدمين، صدرها يرتفع وينخفض، دمها يقاوم في عروقها، قلبها يدق بلا هوادة وكأن يد الموت تكاد تمسه ليصمت للأبد، ما أقساك أيها الموت!

وقفت أعلى السلم، وصعقت عندما رأت درجاته المكسورة، وجثة أختها غارقة في الدماء في منتصف البهو، وبجوارها (فوزية) تصرخ وتبكي، شحب وجهها وسقطت على الأرض مغشيا عليها.

مرت الأيام، ازداد البيت ظلمة ووحشة بعد رحيل (كوثر)، لقد هجره الضيوف وسكنته الأحزان، وأغلق الفرن بعد حبس (شحاتة)، لم يبق شيء على حاله.

أوشك الليل أن ينتصف، وكادت الحارة أن تغرق في ظلمته لولا ضوء باهت تسلل من باب المقهى، جلس (يوسف) متلفعا مرتجفا بجوار (فتحي)، بعد عودته من زيارة أهله بالشرقية، وذلك بعد فشل مسرحية (سلاح اليوم)؛ لأن الجمهور لم يتذوقها، فقد كانت تتضمن هجوما على القيم المادية للمجتمع، كما أنها لم تكن من الطابع الكوميدي المعروف، فطحنت الخيبة (يوسف) بعد فشل المسرحية، وشد رحاله إلى بلد أهله، وبعد عودته صدم بما حدث في بيت (أم فوزية)، وذلك لأنه ترك الحارة تلك الليلة المشؤومة، لم يُطق الانتظار، لم يستطع مواجهة (زهرة) بعد ما حدث، فسكن مع صديق له يقطن بالقرب من المسرح، وانقطعت أخبار الحارة عنه حتى عودته مرة أخرى، سرد له فتحي ما حدث، قائلا:

– حادث، نزلت السلم، كسرت درجاته الخشبية فجأة، فسقطت وارتطمت رأسها بشدة فرحلت عن عالمنا إلى دار الحق، سبحان من له الدوام، إنها إرادة الخالق.

تنهد (يوسف) أسفا، ونظر مليا إلى البيت المنطوي على نفسه

كالسر، واسترسل (فتحي) في حديثه قائلا:

– فوزية، حزينة يائسة، حتى إنها توقفت عن استقبال الضيوف، هجم عليها الزمن هجمة غادرة، هجمة زلزلزت أركان حياتها، ولن يلتئم جرح فؤادها بسهولة، وازداد الأمر سوءا بعد مرض ابنتها الثانية.

وثب (يوسف) منزعجا:

– زهرة، ماذا حدث لها؟

أجاب (فتحي) ونفسه تفيض بالأسى:

– فقدت النطق! احتار معها الحكماء، وجاء لها (إدريس) المزين، وعملت (فوزية) زارًا وذبحت دون جدوى، لا أحد يعلم هل فقدت النطق أم أصبحت لا ترغب في الكلام؟

غمغم (يوسف) متحسرا، وقلبه يعتصر حزنا:

–زهرة.

وقف (فتحي) قائلا:

– نسأل الله أن يتولاهم برحمته، دنيا النعيم زائلة، لقد تأخر الوقت.

تنهد (يوسف):

- اذهب أنت يا عم (فتحي)، النوم لن يعطف عليَّ إلا قبيل الفجر.

- تصبح على خير يا بني.

- وأنت من أهله.

رحل (فتحي) وترك (يوسف) غارقا في بحر أحزانه، معلقا عينيه بالبيت المظلم، متعطشا لرؤية حبيبته.

ظل (يوسف) يترقب البيت أملا في لقاء (زهرة)، كان ينتظر خروجها كل يوم، ومرت الأيام دون جدوى، لم يجد مفرا من زيارة البيت المخيف لرؤيتها، وبالفعل قابل (فوزية) وطلب منها مقابلة (زهرة)، واندهشت (فوزية) من جرأته، كانت تدرك أن تلك الزيارة ما هي إلا تلبية للعاطفة أكثر من العقل، أخبرته بأنها مريضة لا تستطيع مقابلة أحد، وبعد إلحاحه صعدت إلى غرفتها لتخبرها، ثم رجعت له وأخبرته أنها لا تريد مقابلته، وطلبت (فوزية) منه ألا يجدد الزيارة، وأن يحترم خصوصية البيت ورغبة أهله.

بعد عدة أيام، ذاع خبر عجيب بسرعة النار في نشارة الخشب، ووصل الخبر إلى مسمع (فتحي)، فهرول إلى البيت ساخطا، وجد

(فوزية) جالسة تحت شجرة في الحديقة الخلفية للبيت، وقد بدأت نسمة الحياة المقدسة أن تنعش ورودها مع بداية فصل الربيع، اقترب منها (فتحي)، وقال معاتبا:

- صحيح ما سمعته يا (فوزية)؟

- ماذا سمعت؟

- هل ستتزوجين من (قدري) فتوة حارة (السبع)؟

- نعم، ولِمَ لا؟

- قدري؟ قدري يا (فوزية)؟ لماذا؟ لماذا تكتبين على نفسك الشقاء؟ أشعر وكأنك تلهثين وراء المآسي.

- أنا أحاول الفرار منها، لقد أغلق الفرن، ورحلت (كوثر) وتركني (شحاتة)، (قدري) هو من مد يد العون لي، الآن لا يوجد لي مصدر للرزق، سوف أغلق البيت وأرحل بلا عودة، أتعطش للنسيان بإلقاء نفسي في خضم حياة جديدة.

-لكن (قدري) سيئ السمعة، إنه مثل (الدسوقي)، لا يختلف عنه.

-ليس لي سبيلًا غيره.

صمت (فتحي) للحظات ثم قال:

- حسنا، إذا كان الحل هو الزواج، أنا، أنا أود أن أطلب يدك للزواج!

رفعت (فوزية) رأسها نحوه، وصمتت لبرهة ثم ضحكت بصوت مرتفع حتى دمعت عيناها، وكأنها لم تضحك من قبل، وكأنها تحررت من رباط الحزن للأبد! ثم توقفت عن الضحك، وانتفضت من مجلسها، واقتربت منه هامسة:

-أخيرا، أخيرا نطقت يا (فتحي)، كنت أنتظر ذلك الطلب منذ أمد بعيد، ولكن ما هو ذنب زوجتك وأولادك؟ لقد أسعدتني كلماتك.

ثم تنهدت، وساد الصمت للحظات، وقالت بصوت هادئ:

- ستظل دائما المرفأ والمأوى.

ثم تركته وابتعدت بخطوات بطيئة مترنحة، وظل هو بمكانه يائسا حزينا.

ظل البيت في دوامة لا ترحم ولا تسكن، الأنفس مريرة، القلوب ثقيلة، الأحلام مرهقة، الخيبة طحنت الوجدان، ظلت (زهرة) راقدة في غرفتها، تائهة غارقة في بحر من الأحزان، شعرت

برغبة قوية في الخلو بنفسها التي زلزلها ما حاق بها، حتى وصل إلى مسمعها خبر زواج أمها من (قدري) الفتوة.

وفي ليلة لم يكن القمر قد اكتمل، جاء (قدري) لمقابلة (فوزية)، جلس معها في حجرة الصالون، مرتديا عباءته الواسعة الفضفاضة، قابضا على نَبُّوتِهِ، قائلا بصوت غليظ:

- أدرك تماما مدى حزنك على فراق ابنتك الكبرى، ولكن النسيان نعمة من الله، والحي أبقى من الميت، وأنا لست بشاب يافع أو تلميذ في المدرسة خاطب زميلته، أنا لا أطيق الانتظار، ولن أظل هكذا على عهدي ذهابا وإيابا، متى أطلب المأذون؟

-متى تشاء.

ضحك (قدري) فرحا، وهزت ضحكته أرجاء البيت، ثم قال:

- هذا هو كلام العقل يا عروسة، لنتفق على عش الزوجية إذن، أنتِ تعلمين أنني متزوج، وأكرمني الله بالبنين والبنات، كما أن بيتي في حارة السبع بيت صغير لا يضاهي بيتك هذا.

ثم توقف عن الحديث، وتأمل المكان حوله من تحف وتماثيل، وابتسم قائلا:

- أرى أن بيتك هذا هو الأنسب.

-ولكن، هذا البيت بيت بناتي، وأنت تعرف يا معلم الواجب وسيد من يفهم الأصول.

اختفت ابتسامته الغليظة ثم قال:

- طلباتك؟

- بيت جديد، ومهر.

- وبيتك هذا؟ لا يوجد بيت في الحارة مثله، بيتك أكبر بيت في حارتكم وحارتي.

-بيت أسود، تسكنه الأحزان.

-فهمت، أظن أن السبب هو حادث ابنتك الأليم، هل تفكرين في بيعه؟ لكن من هذا الذي سيُقبل على شراء بيتك بهيئته المخيفه؟

- ومن قال إنني سأُقدم على بيعه؟ سوف أغلق البيت، ونقطن بيتنا الجديد بعد إتمام الزيجة.

- وبناتك؟ معنا؟

-بالطبع.

وقفت (فوزية)، واقتربت منه هامسة في دلال:

- هذا هو شرطي الوحيد لإتمام الزيجة يا (قدري)، بيت جديد

ومهر يليق بي، أنا لا أطيق أن أعيش في هذا البيت العتيق.

تأمل (قدري) وجهها الجميل، وذاب مع صوتها العذب، ونظر إلى مفاتن جسدها وهي تتمايل أمامه في دلال، فالتهب جسده شوقا لجمالها، ورائحة شعرها العطرة، وسحر شفتيها الحارتين، وأسرع قائلا:

- موافق يا عروسة، لك ما تريدين، لابد أنك كنت رائعة الجمال في سن العشرين، لكن، أنا أراك أشد روعة في الوقت الحاضر، فأنا لم أجد امرأة تضاهيك يا (فوزية).استعدي فيوم زفافنا قريب، سأجهز لك البيت.

- والمهر؟ فأنا أريدك.

-والمهر أيضا.

كانت الحديقة تسبح في ضوء القمر الباهت في شبه ضباب زاد من وحشتها وغموضها، فجلست (فوزية) بعد مغادرة (قدري) البيت مادَّةً ساقيها على الحشائش هادئة، سمعت صوت خشخشة في الأوراق الجافة، التفتت وراءها فرأت (زهرة) تقترب منها بخطوات بطيئة، رؤيتها بددت ظلمة الليل ووحشته، بددت كآبة الخلاء، جعلت الهلال السابح يبتسم كمن يزف البشرى في الظلام،

فاعتدلت (فوزية) في جلستها وقالت بحماس غير متوقع:

– زهرة، أخيرا خرجتِ من عزلتك، ألف بركة يا حبيبتي، ألف بركة، تعالي، تعالي اجلسي بجواري.

اقتربت (زهرة)، وجلست بجوارها صامتة شاردة، أسرعت (فوزية) قائلة:

– ما أجمل السماء صامتة هادئة وكأنها ناعسة!!

حدجتها (زهرة) بنظرة قاسية، وقالت بصوت مبحوح خائف:

–أنا، أنا أريد أن أتكلم.

فرحت (فوزية)، وقبلتها وهنّأتها:

– بركة ياحبيبتي، بركة، الحمد لله، الحمد لله، قد استجاب الله لدعائي، وأتم نعمته عليكِ بالشفاء.

ثم استرسلت (زهرة):

– أخشى أن يمسني الجنون.

تجلّى الاهتمام والقلق في عيني (فوزية)، وقالت (زهرة) بصوت متقطع باكٍ:

– أنا، أنا قتلتها.

ارتفع صوت أنفاس (فوزية)، وقالت:

- ماذا؟ قتلتِ؟ قتلتِ مَن؟

مسحت (زهرة) دموعها بعنف، وقالت:

- أنا ملعونة، ملعونة، أحلامي تتحقق، كل ما أحلم به يتحقق في صباح اليوم التالي.

زادت دقات قلب (فوزية)، ونظرت إليها في رعب، واسترسلت (زهرة):

- في تلك الليلة القاسية، كنت أشعر بالسخط، عندما رأيتها في أحضان (يوسف)، شعرت بالحَنَق والجفاء والكراهية، كراهية لم أشعر بها من قبل، كراهية جعلت قلبي ينزف دما، كراهية خلقت مني وحشا، كراهية أمرت عقلي أن يغوص في عالم الأحلام القذرة المتوحشة، حلم شيع جسدها إلى مثواه الأخير، ذهبت في سبات عميق، حلمت بها تجري على السلم الخشبي، وكسرت درجاته، فسقطت وارتطمت رأسها بشدة وفارقت الحياة، أنا، أنا لم أود أن يحدث هذا، لست أنا، هناك شر، شر ما بداخلي أو بداخل هذا البيت الملعون.

قاطعتها (فوزية)، وأمسكت ذراعها بعنف، لقد بذلت جهدا

لحجب غضبها إلا أن صوتها احتد، قائلة:

- هل دخلتِ المعمل؟ دخلتِ المعمل؟

نظرت (زهرة) لها مندهشة، وأجابت بصوت مرتعش:

- نعم، مرة واحدة فقط!

صرخت (فوزية):

- لماذا؟ يا لخيبة رجائى!! هل أكلتِ من البودرة؟

- بودرة؟ لا؟

- لا تكذبى.

صمتت (زهرة) للحظات، كانت تحاول استيعاب كلماتها، ثم بدا على وجهها أنها تذكرت شيئا ما، عندما مدت يدها بداخل الفرن الصغير، وجدت بداخله الكعك المحلي اللذيذ وتناولت القليل منه.

لطمت (فوزية)، وقالت صارخة:

- قومي، قومي معي.

ثم قطعت السلسة بعنف، وأمسكت بالمفتاح وجرت نحو المعمل، دخلت وراءها (زهرة) بخطوات مترددة خائفة، ماسكة

بيدها مصباحا مضيئا، تنظر يمينا ويسارا خائفة، اقتربت (فوزية) من الفرن، وقامت برفع لوح خشبي كبير بجواره، ووراءه زكيبة كبيرة أمسكت بها، ثم نظرت إلى (زهرة) غاضبة:

- هل تستمتعين بالمشاهدة؟ مدى يدك وارفعي تلك الزكيبة الثقيلة معي.

أجابت (زهرة) بصوت خائف:

- أنا لا أفهم شيئا.

اشتد غيظ (فوزية)، ولوحت بيدها ساخطة:

- ارفعي معي تلك الزكيبة الملعونة!

وضعت (زهرة) المصباح جانبا، ورفعت معها الزكيبة.

ألقت (فوزية) الزكيبة بجوار الفسقية المهملة في الحديقة الخلفية للبيت، وقامت بإشعال النيران بها، وظلت (زهرة) متجمدة في مكانها تراقب ما يحدث، جلست (فوزية) أمام الزكيبة المحترقة، وقد بدا وجهها على ضوء النيران المرتعشة بالنسيم واضح الكهولة، وكأن الشيخوخة هجمت عليها فجأة، وساد صمت مرعب قطعته (فوزية) بصوتها الحزين قائلة:

- يا للدنيا الهاذلة!! دنيا فقيرة معدمة، في لحظة يضيع كل شيء، وكأنني لم أُمنح منها شيء، في لحظة سلبت الدنيا مني كل ما ربحتُ.

ثم التفتت إلى (زهرة)، قائلة في حسرة:

- دائما تبحثين عن الحقيقة، قد يكون أكبر خطأ نرتكبه في حياتنا هو البحث عن الحقيقة، حقيقة بعض الأشياء، أشياء قد تكون حقيقتها مخيفة مرعبة، حقيقة قد تكون بداية النهاية!

ثم تنهدت، ونظرت إلى النيران المشتعلة الراقصة، واسترجعت الذكريات، قائلة:

- لقد ورثت من أمي الجمال وحب المال وذلك البيت الملعون، وتلك الزكيبة!

كانت أمي تعمل بالسحر مثل أمها وجدتها وجدة جدتها، كانت تدفن الأعمال بداخل أفواه الموتي، كانت دائمة الزيارة للقبور، علمتني الكثير دون جدوى، كنت أبكي مذعورة، أكره عملها وأخاف منه، أصابها اليأس، أدركت أنني لست مثلها، أنا هشة ضعيفة لم أستطع تعلم السحر، ثم ظهرت الشوطة وقضت على الكثير من الرجال والنساء والصِّبْية في قرية (موشا) بالصعيد، وقام أهل القرية بطردنا منها، كنت أسمعهم وهم يقولون: ارحلوا من

هنا يا بنات الشياطين! يا بنات الأفاعي؛ ظنا منهم أن الشوطة التي أصابت بلدهم وأولادهم عقاب من الله، لأنهم كانوا على علم بممارسة أمي أعمال السحر، كانوا على علم والتزموا الصمت، لم يعترض أحد بل إن منهم من كان يتوسل لأمي أن تعلمه!

جئنا إلى هنا، وشيدت أمي هذا البيت، وساعدها (أحمد الدسوقي) الفتوة بدوره أن يجلب الزبائن، ويبعد عنا أهل الحارة بألسنتهم وتساؤلاتهم، كانت كل ما تخشاه أن يعلم أحد في الحارة سرنا، فيقوموا بطردنا مثل أهل (موشا)، وبعد فشل محاولاتها العديدة في تعليمي، أحضرت بودرة من العطار عبارة عن سكر ملون مطحون مع القرفة، وقالت تعويذة، تعويذة (هليوس) ابن الشيطان وخليفة إبليس في الأرض، والمطلوب مني أن أقوم برشها على الكعك، من يتناول الكعك أفكاره يحلم بها، والحلم يصبح حقيقة، لكن بشرط أن يكون شخصا نقيا، لا يسكن قلبه الشر، مثل قلبك وقلب (سفرجل).

(سفرجل) هيئتها تثير الذعر، لكن قلبها وعقلها مثل الطفل الصغير، هي لا تعلم شيئا عن دورها هذا، أنا أقابل الزبون، وأعرف المطلوب، ثم يأخذ الزبون (سفرجل) معه لترى بيتا أو شخصا أو حديقة، على حسب المراد، ثم أحكي لها المطلوب على

هيئة حدوتة، (سفرجل) تعشق القصص والحكايات، وتأكل الكعك وتنام، تحلم بالحدوتة، ويتحقق المراد، وأكسب، كسبت المال الوفير، وذاعت شهرتي في الأرجاء، وشرطي الدائم على أي زبون، أن لا يفصح بسري لأحد من أهل الحارة، فيتلاشى السحر وتحل اللعنة!

ترنحت (زهرة)، وجلست في مكانها، وقالت متمتمة حانقة:

- حكاية لا يصدقها عقل!!

أجابت (فوزية) بصوت حزين:

- هذه هي الحقيقة!

ارتفعت درجة الذعر، وهجم شيء كثيف حجب وجه الهلال الباسم، حاولت (زهرة) أن تتماسك، ولكن انهالت الكلمات:

- أنتِ السبب، أنتِ من أدخل الشيطان وأسكنه البيت، أنتِ التي خلقتِ مني تلك التعسة، وقطعتِ ما بيني وبين الأمل والرجاء وملأتِ وجداني بالجزع والشقاء، شيطانك أمر عقلي بقتلها!

أسرعت (قوزية):

- عمرها.

وقفت (زهرة)، واقتربت من (فوزية) بخطوات سريعة غاضبة، قائلة:

- بل هو شَرّك، لقد لعب الطمع بقلبك واستحوذ على عقلك، انقلب السحر على الساحر، هذا هو القصاص!

نظرت لها (فوزية) بطرف عينيها، وقالت بصوت ضعيف، وقد بدا عليها تضاؤل طاقتها:

- أنا لم أقتل أبدا.

بدا وجه (زهرة) على ضوء النيران ضعيفا على رغم تجهمه، وقالت:

- لقد آذيتِ الكثير، السحر أذى، لقد اخترتِ طريق الشر، طريق الشيطان، استسهلتِ الطريق، كان بيدك قرار الرفض والابتعاد، ولكنك انغمستِ في الوحل مثل أمك وجدتك، حبك للمال أعمى عقلك وقلبك، هناك رؤية تحتاج إلى أعين وأخرى تحتاج إلى قلب!

صمتت قليلا، ثم أسرعت متسائلة في خوف:

- وعمي (أحمد) أبو (كوثر) كيف لفظ أنفاسه الأخيرة؟ هل صحيح ما قالته (كوثر)؟

انتفضت (فوزية) من مجلسها، واقتربت أكثر من (زهرة):

- لا، لا، لم أفعل ذلك،أقسم لك، مَن منا كتب له الخلود؟

- نعم، تلك هي الحقيقة، مَن منا كتب له الخلود؟ فالحياة دعابة سخيفة سوف تنتهي يوما ما، سوف تنسى الأرض أنك تنفستِ عليها يوما، ولكن أليس الأمر بغريب؟ معظم زيجاتك انتهت برحيل الرفيق؟

- لقد مسَّكِ الجنون حقا، كيف تصدقين ذلك؟ أنا لست بقاتلة.

-لِمَ لا؟

- كلامك مسيء موجع. هل أنتِ تحت تأثير الخمر؟

- إن الخمر لم تذهب بعقلي قط، ولن تدخل جوفي ما حييت، لقد كنتِ تكرهين عم (أحمد)، أنتِ أخبرتِنا بذلك، إنه كان قاسيَ القلب، لم يعرف الرحمة، وكان يكبرك بعشرين عاما، وأجبرتك جدتي على الزواج منه، فهو فتوتها وذراعها اليمنى، عندما تلطش الخمر عقلك تبوحين بالكثير، حتى (سفرجل) لم تسلم من بطشه وعنفه.

قاطعتها (فوزية) بصوت ممرور:

- أنا...

ثم توقفت فجأة عن الكلام، وكأنها تذكرت شيئا ما، فقالت بصوت مذعور مبحوح:

-سفرجل، سفرجل؟ هل من الممكن أن تقوم (سفرجل) بذلك؟ بمفردها؟

ازداد اشتعال النيران، وهمست (زهرة) بأذن (فوزية):

- نعم، سفرجل، عم (أحمد) كان يقوم بضربها وسبها! فلِمَ لا تفكر في الخلاص منه؟!

-لا، مفعول البودرة يتلاشى لو سكن القلب الشر، كما أن والدك كان رحيما بها عطوفا عليها، ورحل بعد زواجنا بعدة أشهر، هل قامت بقتله في حلمها أيضا؟

قالت (زهرة) مسرعة بصوت ساخر:

- مفعول البودرة يتلاشى لو سكن القلب الشر؟!

ثم ضحكت ساخرة:

- كلام عجيب! كيف يُعقل هذا والسحر كله شر؟! ألم يخطر على بالك يوما أن حلما من أحلام (سفرجل) قد يهلك أحدا منّا؟

-(سفرجل) قلبها أبيض، والمفعول ينتهي مع الحلم المطلوب!

- لا، أنا ما زلت أحلم، وأحلامي تتحقق.

نظرت (فوزية) إلى النيران المشتعلة، وسألت بصوت مرعوب:

- كيف؟ مفعول البودرة ينتهي مع الحلم المطلوب!

أجابت (زهرة) بنبرة صوت متحدية:

- لم يحدث هذا معي! ما زلت أحلم، وما زلت أراه؟

قطبت (فوزية) جبينها، متسائلة:

- من؟

ساد صمت مميت للحظات، وظهر الرعب على وجه (زهرة)، وهي تنظر إلى شيء ما خلف أمها، والنار تشتعل من جديد، ثم قالت بصوت مبحوح خائف:

-أراه!

ظهر الهيكل الأسود ضخما يميل إلى الحمرة غير محدد الملامح، خارجا من لهيب النار يكبر رويدا رويدا، وكأنه سيملأ الأفق، التفتت (فوزية) نحو النيران المشتعلة بحركة بطيئة يملؤها الرعب، بعينين تجحظان من شدة الخوف، لكنها لم تر شيئا فقد تلاشى

الهيكل في الخلاء كرذاذ الثلج في ذروة العاصفة!

تحررت (فوزية) من رعبها، قائلة بنبرة لا تخلو من القسوة:

-أتسخرين مني؟

هزت (زهرة) رأسها، وضحكت بصوت ساخر:

– نحن نستحق الشفقة لا السخرية، ليس هناك أسوأ مما نحن فيه.

ثم ابتعدت عن (فوزية) متجهة نحو مدخل البيت بخطوات واثقة، قائلة بصوت ساخر ماكر:

– هل سألتِ نفسك ماذا سيكون حلم اليوم؟ مَن سيكون بطل حلمي؟

ثم التفتت نحو أمها، وابتسمت ابتسامة تحمل غموضا مزعجا:

– نسيت، مبارك الزواج يا عروسة.

ثم تركتها ودخلت البيت مسرعة، وجدت (سفرجل) واقفة تنظر إليهما في صمت غامض، توقفت (زهرة) للحظات، وأمعنت النظر في وجه (سفرجل) العجوز، وهي تبتسم لها ببلاهة ثم تركتها، واتجهت نحو السلم، صعدت درجتين، وتوقفت فجأة

ودققت النظر، لقد تلاشت الرسومات والزخارف المنقوشة على خشب السلم!

لم يتبقَّ منها سوى بعض الرسومات المحفورة على بقايا الدرجات المكسورة، فانساب الدمع من مآقيها، وعادت إلى غرفتها الساكنة.

وظلت (فوزية) متجمدة في مكانها، فكلمات (زهرة) نكأت جروحا في فؤادها، والنار المشتعلة وراءها لا تخمد.

بعد عدة دقائق، ظهر أمامها (فتحي)، يكر بين يديه حبات سبحة من الكهرمان، يبدو عليه القلق، سألها وهو يشير نحو النار المشتعلة:

- ماذا حدث يا (فوزية)؟

جلست (فوزية) على الأرض، وقد بدا عليها الإعياء الشديد، قائلة:

- لا تقلق، لقد قمت بإشعال النيران في بعض الأشياء القديمة.

- هل أنتِ بخير؟

-نعم، أنا بخير.

ثم وقفت واتجهت نحو البيت، قائلة بصوت حزين:

- آسفة يا (فتحي)، لا أستطيع التحدث معك الآن، أنا متعبة جدا سأخلد إلى النوم. تصبح على خير.

-وأنتِ من أهل الخير يا (فوزية).

سكن الحزن قلب (يوسف)، فمن العسير أن يترقب المرء الحياة فلا تأتي، لقد صارت الحياة كابوسا لا يطاق، صمم على نسيان (زهرة) بلا جدوى، فهام على وجهه في طرقات الغورية، الصاغة، خان جعفر، النحاسين، أبو الوطاويط، الحسين، بيت القاضي وحارة الشوام كأنه يبحث عن ذاته التي خسرها، لكن اليأس إذا استوطن جسدا لا يفارقه إلا بانتزاع الروح، فتضاءلت طاقته وفقد شغفه وعزم على الرحيل.

وسكن الخوف والقلق عقل وقلب (فوزية)، ظلت تراقب (سفرجل)، تسأل نفسها: هل من الممكن أن تكون أحلام (سفرجل) وراء رحيل (الدسوقي)؟ هل يعقل ذلك؟

وفي يوم ما، جلست (فوزية) بجوار الفسقية، تراقب (سفرجل) من بعيد وهي تلعب مع (شادية)، تجري وراء الفراشات وتضحك كالطفلة الصغيرة البريئة، تمتمت (فوزية) قائلة لنفسها:

- حقا، عقلها عقل الطفل الصغير، لا يمكن أن تفكر في أذى

أحد، لعنة الله على الأوهام، لكن، يوم وفاة (أحمد الدسوقي)، اختفت (سفرجل) من البيت، لقد بحثتُ عنها في كل مكان، لم نعثر عليها سوى اليوم التالي، ولا أعرف حتى يومنا هذا أين كانت؟!

كان يوما من أيام الصيف، جلس (الدسوقي) بجوار الفسقية، وهو يتأمل أشجار الحديقة، شجر المشمش والجميز ، ثم نادى قائلا:

- (سفرجل)، يا وجه البومة، أنتِ أيتها العجوز الشمطاء.

أسرعت نحوه (سفرجل) خائفة، وقال:

- لقد قلت لك مئة مرة: لا تهملي الحديقة وتتركيها هكذا.

هزت (سفرجل) رأسها بإيماءة، وهي تحدق به، وبجسده الضخم الذي يبعث قشعريرة تسري بالبدن، ماسكا بيده (المشمش)، يلتهمه بأسنانه القذرة النخرة، وسنّته الذهبية التي تلمع مثل أشعة الشمس الحامية، فزاد غضب (الدسوقي) قائلا:

- هذا هو كل ما آخذه منك ، هز الرأس فقط.

ثم ضربها بعصاه كعادته، وفتل شاربه الغزير المبتل، وسبها ولعنها ثم دخل البيت، بدا الحزن والبغض على وجه العجوز، تتبعته بنظراتها الغاضبة، وهو يلتهم ثمرة المشمش في نهم، لا يبالي

بحزنها، ولا يكترث لآلامها، ظلت تحدق به وبفمه، وهو يستمتع بطعم الفاكهة، ثم بصق (البذرة) وألقى بها بعيدا.

في اليوم التالي، ارتفع صوت بكاء (أم فوزية)، تنعيه قائلة بصوت حزين:

- لقد رحل رجلنا، رجل الحارة وسيدها، لقد مات الفتوة، كيف يعقل هذا؟ بذرة مشمش يا (سبع الرجال)؟ سبحان من له الدوام!

فرح أهل الحارة بخبر رحيل فتوتهم، وشاركتهم الفرحة سرا (فوزية)، وصارت قصة رحيله دعابة تتناقلها الألسن، لم يصدق أحد أن (أحمد الدسوقي) الفتوة الذي يهلع الأنفس بصوته، قضت عليه بذرة مشمش، وقفت بحلقه ونقلته إلى العالم الآخر، وبحثت (فوزية) عن (سفرجل) في كل مكان، اختفت ثم عادت في اليوم التالي، لم يتيسر لها الفرار، لم تهتم بالحديقة من يومها، ولم يهتم أحد بها فغرقت في بحر الظلمة والوحشة.

مرت الأيام ثقيلة، أمست (فوزية) واضحة الكهولة، مقعرة الخدين، بارزة الفم، اختفى أديم وجهها تحت الأخاديد والتجاعيد، وأخذ الشيب يطل من مفرق شعرها، لقد ذبلت ورقة شبابها فجأة

وسقطت، فصارت كالسفينة المتهالكة العارية التي شقت طريقها يائسة في خضم الأمواج، كانت تخشى رؤية (زهرة)، تتهرب منها في حجيرات البيت العتيق، كانت رؤيتها تذكير بالماضي الوقح ووعيد سافر، قضت الليالي الطويلة ناعسة تأبى النوم خائفة من أحلام (زهرة) الشيطانية، وقفت يوما أمام المرآة، تتأمل وجهها العجوز في حسرة، قائلة لنفسها بصوت هامس حزين:

- دنيا!! كم أبصرت بالشباب يفيض من هذه المرآة!! فما شعرت بمتعة، وما الفائدة؟ فقد كنت دائما أشعر بالوحدة، لم أجد من يؤنس الوحدة ويبدد الجفاء، فقط الزهو، الزهو بجمال الوجه ومفاتن الجسد، اليوم وقد امتدت يد اللعنة لتقطف زهرة شبابي، آه يا زمن!! لقد ولى الشباب وذهب العمر.

اندهشت (فوزية) بوقوف (زهرة) وراءها، لقد سمعت حديثها وهي تخاطب مرآتها، نظرت لها (زهرة) نظرة تنم عن الشفقة والحسرة، كانت تلك هي أول مرة ترى بعينيها نظرة غير ساخطة، نظرت (فوزية) إلى الأرض صامتة مكسورة، وابتعدت (زهرة) بخطوات هادئة.

اندهش (قدري) عندما رآها، كيف تبدل حالها من امرأة يذوب الصخر من دفء عينيها ورشاقة بنيانها إلى تلك العجوز البائسة،

فقال لها بصوته الغليظ، ورائحة فمه الكريهة تزعجها:

- ماذا حدث؟ هل أصابتك لعنة ما مثل تلك التي أصابت بيتك؟ حقا إن الله يحبني، كيف كنت سأتزوج هذا الوجه العجوز؟

فعزف عن طلبه وذهب بلا عودة، صارت شيخوخة (فوزية) مضغة للأفواه بالحي، منهم من يقول إن هذه هي بداية نهاية البيت الملعون، ومنهم من يقول إن حزنها على رحيل ابنتها بدد شبابها، وليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا الزائلة.

سأل (لوقا) (فتحي):

-الناس هنا يقولون إن (فوزية) تغير شكلها بين عشية وضحاها، مثل البيت، هل هذا ما حدث أم تلك إشاعات وأقاويل؟

جلس (فتحي) بجواره على الأرض، وقال متحسرا:

- للأسف، حقيقة، لا أحد يدري كيف حدث هذا؟ ظلت أعواما على عهدها جميلة، صبية لا تكبر، الشيب يلحق بنا جميعا، وهي لا، حتى لحق بها ما لحق بأمها من غيرة النساء وحقد العجائز وتصارع الرجال.

أسرع (لوقا) قائلا:

- قد يكون حزنها على ابنتها (كوثر) بدد شبابها؟

أجابـ (فتحي):

- لا أظن أن هذا هو السبب الحقيقي، بعد وفاة (كوثر) تقدم لخطبتها (قدري) فتوة حارة السبع، كانت جميلة، حزينة لكن جميلة، رشيقة كالفراشة، عيناها تنطقان بالحب، نظرتها الحزينة كانت تثير الوجدان، في يوم، اشتعلت النيران بحديقة البيت، ورأينا الدخان يتصاعد، وأسرعت إلى بيتها خائفا، قالت لي إنها تحرق بعض الأشياء البالية، في صباح اليوم التالي، بدا عليها الشيب والوهن، ثم تبدد جمالها سريعا كأنها أصابتها لعنة ما مثل بيتها.

رحل (يوسف) إلى (الكوربة)، علمت (زهرة) ولم تأبه لرحيله، بل لعنته من صميم قلبها، فقد كان بالنسبة لها بداية اللعنة والأحزان، هو السبب وراء مقتل أختها، هو من زرع بداخلها الكره بعد أن علمها الحب والطمأنينة، فأصبحت قاسية القلب، جافة المآقي، ساخطة على الماضي والحاضر.

وفي ليلة هادئة، صرخت (زهرة) في البهو بصوت غاضب، قائلة:

- أنا لا أخشاك، صرت لا أخشى شيئا.

أسرعت نحوها (فوزية) بجسدها النحيل الضعيف، واقتربت (سفرجل) عارجة، ومن ورائها (شادية)، رأت (فوزية) (زهرة) واقفة في منتصف البهو، وتنظر نحو السلم الخشبي ودرجاته المكسورة، نظرة قسوة وتحد، وجهها الضعيف ينطق بشتى أنواع الآلام، تتحدث مع سراب لا تراه الأعين، ثم فرت هاربة نحو حجرتها، تمتمت (فوزية) بصوت ضعيف:

- لابد من إصلاح تلك الدرجات المكسورة، لابد من الإصلاح.

ابتسمت (سفرجل) ابتسامة باردة غامضة، وتركتها (شادية) في هدوء.

بعد عدة دقائق، اقتحمت (فوزية) حجرة (زهرة) بعد أن نزعت بذور الخوف من قلبها الضعيف، متسائلة:

- هل ما زالت الأحلام تراودك؟

نظرت لها (زهرة) نظرة غير قصيرة، وأجابت بصوت أجش:

- أتجرؤين حقا على معاودة هذا الحديث؟ أنسيت أن المصائب تتابعت علينا من وراء طمعك؟ احذري أن يحيق بك غضبى.

- وكأنك شخص آخر لا أعرفه.

- بالطبع، أنا التي قتلتْ أختها.

- هوني على نفسك، المجرم الحقيقي هو أنا.

- غريبة، كنت أظنك عاجزة عن الإحساس بالخطأ، كنت أعتقد أنك اعتبرتِ نفسك ضحية ينبغي على الجميع أن يغفر لها هفواتها.

ساد الصمت للحظات، أسرعت (فوزية):

- ليتني أستطيع إصلاح ما أفسدته.

هزت (زهرة) رأسها، وقالت بصوت حزين:

-الحياة في جملتها لا تستحق عناء العيش على الإطلاق.

قاطعتهما (شادية) بدخولها الحجرة مسرعة، ابتعدت (فوزية) عنهما بخطوات هادئة يائسة، جلست الصغيرة على الأرض ترسم بحماسة كبيرة، واتجهت (زهرة) نحو المرآة، نظرت إلى نفسها نظرة أسى، ضغط الحياة أنهك أعصابها، فغرقت في نسيج الأحزان المحكم وأجهشت في البكاء، ثم تأملت وجهها ثانية، دارت برأسها عدة أفكار غريبة، كانت تسأل نفسها أسئلة كثيرة، هل الشيطان يسكن عقلها فقط أم يسكن جسدها أيضا؟ هل يشعر بآلامها؟ هل يدرك مدى كرهها له؟ هل سيصيبها مكروه ما؟ شعرت أن ملامح وجهها قد تغيرت، ملامحها لم تتغير، لكنها شعرت بذلك، زادت

حماسة (شادية)، وهي تحك بقلمها الرصاص الورقة البيضاء لتظلل بقعة سوداء خلف السلم الخشبي الذي قامت برسمه، وانزعجت (زهرة) كثيرا من صوت حكة القلم فثارت قائلة:

- كَفَى.

توقفت الصغيرة عن الحركة، ورمقتها بنظرة حزينة، ثم كرمشت الورقة، وألقتها بسلة المهملات.

طرقت (فوزية) باب الحجرة ثانية، ودخلت قائلة:

-في انتظارك زائر.

-من؟

- (يوسف).

- (يوسف)؟ كيف؟ لقد رحل، وترك الحارة.

- يبدو أنه غير رأيه، وقرر العودة، مصمم على مقابلتك. لقد طلبت منه مرارا ألا يجدد الزيارة دون جدوى، لن يرحل إلا بعد مقابلتك.

توقفت (زهرة) عن الحركة حائرة تائهة، تركت الحجرة (شادية) بخطوات حزينة، وأسرعت (فوزية) متسائلة:

- هل ستقابلينه؟

اتجهت (زهرة) نحو باب الحجرة بخطوات واثقة متحدية:

- نعم.

اقتربت (زهرة) من (يوسف)، واقفا بجوار الفسقية المتهالكة بالحديقة الخلفية للبيت، وضوء القمر الباهت يسبح بالحديقة فأغرقها في بحر الغموض، عندما رآها ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه، قائلا بصوت حزين:

- زهرة.

وقفت (زهرة) على بعد خطوات منه، قائلة بصوت جاف حاد:

- نعم.

ساد الصمت لعدة لحظات ثم قال:

- لا أعرف كيف أبدأ؟ لقد رحلت، ثم، ثم قررت العودة، لقد سئمت الرحيل، سئمت الهروب من الأخطاء والوحدة، كنت أستعد لتلك اللحظة، لكن نسيت، نسيت الكلمات التي... أنا آسف.

ثم ساد الصمت مرة أخرى، فقالت (زهرة) بصوت ساخر:

- تعتذر عن نسيانك للكلمات أم تعتذر عمّا حدث؟

أسرع قائلا:

-أعتذر عن كل شيء، أنا آسف، غالبا ما ينطلق تفكيري في ناحية ويتبلد تصرفي في ناحية أخرى، فأظل في موضعي تائها لا سلطان لتفكيري على تصرفي وكأنني مقيد و...

- لكنك لم تكن متجمدا مقيدا وقتها، كنت تلتهم شفتيها، وتمسك بنهديها، كنت تدرك تماما أنها هي لا أنا، ليس هناك أبغض إلى المرء من رؤية الحقيقة، ورؤيتك تثير النفور بقلبي، وتبعث بداخلي قشعريرة، أنت، أنت تذكير للماضي الوقح.

ثم توقفت عن الكلام للحظات وقالت:

- أتعلم؟ الحب، ذلك الشعور الذي يجعلنا نتذوق الحياة، هو في الحقيقة لعنة، لعنة الحب إما أن تبعثك حيا أو تسقطك صريعا، أتتذكر ما قلتُه لك عن أحلامى؟ يومها حلمت وسقطت صريعة في الهاوية، وفارقت هي الحياة، لقد سكن قلبي البغض، وتملك جسدي الخور، أنت لم تحب يوما، أنا لا أود رؤيتك مرة أخرى.

ثم اندفعت الدموع إلى مآقيها، وهي تبتعد عنه مسرعة، وتوقفت فجأة، ونظرت له نظرة تحدٍّ تنم عن البغض، قائلة:

- إياك أن تقترب مني مرة أخرى، فيلحق بك ما لحق بها.

وتركته مسرعة فارّة نحو حجرتها، رأتها (فوزية) وهي مسرعة تجري نحو السلم الخشبي، ورمقتها (سفرجل) بنظرة باسمة باردة غريبة، ورأت (فوزية) نظرة (سفرجل) الغامضة، فسكن قلبها الخوف والرهبة، لا تدري لماذا؟ تلك النظرة ليست بريئة، إنما هي نظرة من تعي وتفهم.

أغلقت (زهرة) باب غرفتها، وهي تبكي بصوت عالٍ، وتوقفت فجأة عن البكاء، وارتسمت على وجهها نظرة خوف، عندما سقطت عيناها على تلك الورقة المكرمشة الملقاة في سلة المهملات، اقتربت منها وفتحتها في هدوء، رأت رسمة واضحة للظل الأسود خلف السلم الخشبي، فصرخت مذعورة، تنادي:

- شادية.

في صباح اليوم التالي، اتجهت (زهرة) نحو المطبخ، رأت أمها جالسة بمفردها، تحتسي فنجان القهوة الساخن في هدوء، اقتربت منها بخطوات بطيئة، وبدا القلق والتوتر على وجه (فوزية)، جلست (زهرة) بجوارها، كانت حزينة شاردة، قد استوطن جسدها اليأس، وزادت شدة الهالات السوداء حول عينيها، قد

بدا عليها الإعياء الشديد، فهي تقاوم النعاس، وإذا غلبها في ليلة تنتفض من مكانها مذعورة، سألت أمها بصوت مبحوح ضعيف:

- هل يوجد سبيل للخلاص؟

تنهدت (فوزية)، وأجابت بصوت بائس:

- لا أدري.

- كيف تمارسين السحر ولا تعرفين سبيلا للخلاص من بؤسنا هذا؟

- أنا لا أمارس السحر، كنت فقط أمتلك بودرة تحقق الأحلام، وحذرتني أمي كثيرا منها، وطلبت مني ألا يتناولها أحد سوى سفرجل.

-إني أشعر بإعياء كلما فكرت في الأمر كله، يخيل إليَّ دائما أنني في حلم، وأن ما عرفته غير صحيح، يخيل إليَّ أنني سأستيقظ يوما، أتأبط حقيبتي وأذهب إلى المدرسة، يخيل إليّ أنني أضحك وأجري وأمرح، يخيل إليّ أنني على قيد الحياة.

ثم صمتت للحظات، وقالت موجوعة:

- لقد رأته شادية؟

-ماذا؟ كيف؟ ومتى؟

-لا أدري، لقد قمت بسؤالها، لكنها لم تقل شيئا.

- وكيف عرفتِ أنها رأته؟

- لقد قامت برسمه، رسمتْ تفاصيل أعرفها جيدا.

-سأبحث عن بيت آخر.

-وهل هذا هو الحل أم ستلحق بنا اللعنة في أي مكان؟ وتلحق بنا أحلامي؟ ألم تقل لك شيئا عن تعويذة تبطل المفعول؟

-من؟

-جدتي؟

- بلى، السر دُفن معها.

- السر دفن معها، يا لحسرتي!! ما العمل؟

ثم قامت، وغادرت المطبخ في خطوات مترنحة، وهي تتمتم:

- السر دُفن معها.

فأسرعت (فوزية) قائلة:

- سفرجل، ربما تعرف شيئا ما.

توقفت (زهرة) ونظرت إلى أمها في دهشة:

-ماذا؟

-سفرجل، أشعر وكأنها، لا أدري، ربما هي هواجس تدور فقط في عقلي.

اقتربت (زهرة) مسرعة قائلة:

- بماذا تشعرين؟

-أشعر وكأنها تعرف شيئا ما، لقد رأيت بعينيها نظرة غريبة.

ثم التفتت (فوزية) حولها في قلق وخوف، أسرعت (زهرة) تطمئنها:

-لا تخافي، هي الآن تلعب مع (شادية) في الحديقة، تكلمي.

- لا أعلم، غياب (سفرجل) عن البيت يوم رحيل (الدسوقي)، ونظرات عينيها بالأمس بعد شجارك مع (يوسف)، أشعر أن وراءها سرا ما، أشعر وكأنها شخص آخر، شخص يعي ويفهم. رأيتها مرة متجمدة في مكانها، تنظر إلى التمساح المحنط المعلق فوق باب الصالون، لم أهتم، ثم رأيتها مرة أخرى تنظف التمساح باهتمام مبالغ فيه، وعندما رأتني ارتبكت، ثم طردت تلك الأفكار

من رأسى، فأنا أراها كالطفلة، لكن نظرتها ليلة أمس زرعت بداخل قلبي الرهبة والشكوك.

بعد لحظات، دخلت (سفرجل) مسرعة عارجة، ارتبكت (فوزية)، وساد الصمت.

خرجت (زهرة) من بيتها ومن عزلتها بحثا عن طريق للخلاص، فقد كانت تخشى نومها وأحلامها، كانت تخشى النعاس، سعت وراء كتب السحر لعلها تجد كتابا يفك اللعنة، ويفك تعويذة هيليوس، ولأنها كانت دائمة الزيارة لمكتبات وسط البلد، اتجهت إلى مكتبتها المفضلة، وسألت عن كتب السحر، ولأن صاحب المكتبة العتيقة يعرفها جيدا، اندهش من سؤالها وطلبها، قائلا:

- لماذا؟ لدي روايات أخرى رائعة وجديدة.

أرشح لك رواية (الطاعون) للكاتب ألبير كامو، رواية أكثر من رائعة، كما أن لدي بعض المجلات.

قاطعته مسرعة:

- لا، أنا أبحث عن كتاب موثوق فيه، يتحدث عن السحر.

وبعد إصرارها، أخبرها بوجود كتاب قديم عن السحر، ولكنه سيكلفها الكثير، لم تأبه (زهرة) بتكلفته، فقال لها العجوز:

-حسنا، لدي نسختان فقط من الكتاب، النسخة الأولى لك، والثانية لن أفرط فيها ما حييت، ليس لمضمونه وإنما لقيمته التاريخية القديمة، فالكتاب منسوب لشهاب الدين أحمد بن يوسف البوني، تقول الروايات التاريخية أنه كان يعيش في القرون الوسطى، تحديدا وقت الحروب الصليبية، هو كاتب صوفي ولد في مدينة البونة بالجزائر، وهي مدينة مشهورة بممارسة السحر الأسود، كان انطوائيا يحب العزلة وعاش حياته متنقلا بين مصر والمغرب وتونس والعراق، يقال إن البوني كان على عهد مع الجن والشياطين، وهم من أَمْلُوا عليه محتوى الكتاب من طلاسم ورسم، تم تصنيف كتابه كأقوى كتاب سحر في التاريخ، فهو يحتوي على عدد هائل من الطلاسم والعزائم لتحضير وصرف الجن، ولكن يجب أن أخبرك أن ذلك يتم بطرق كفرية بحتة، أول ورقة بها مقدمة توحي لك بأنه كتاب ديني، ولكنه بعيد تماما عن الدين، ليس هذا فحسب، هو أيضا كان يخلط بين الأدعية والقرآن والأذكار والتوسلات بأسماء الله الحسنى، وكذلك الطلاسم والتعاويذ، تعاويذ تم ترتيبها بشكل هندسي محدد، سمعت من بعض الرُّوحانيين ألا يجب قراءته باللسان، بل يكتفي القارئ بقراءته بعينيه فقط، لأنه بمجرد نطق الصيغ والطلاسم السحرية يحضر الجن أو الشيطان والعياذ بالله،

ويحدث ما لا يُحمد عقباه.

أسرعت (زهرة):

– لكن، لقد قلت إنه يحتوي على طلاسم لصرف الجن أيضا، هل هذا أكيد؟

ضحك الرجل، وقال:

– لقد سمعت ذلك، بالطبع لم أقرأه فهو أخطر كتب السحر الأسود.

صمتت (زهرة) للحظات تائهة، بدا على وجهها الخوف والقلق، بادرها العجوز بسؤاله:

–هل ستشترى الكتاب؟ هل ستتحملي تكلفته الباهظة؟

أجابت:

–لا.

ورحلت في هدوء.

جلست (زهرة) أمام الشيخ العجوز قائلا:

– إن شيخ الإسلام ابن تيمية قال:

- إن بعض الناس قد يرون الجن والشياطين، ولكن القرطبي قال: قول الله تعالى: {... إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ...}[الأعراف:٢٧]، وهذا دليل على أن الجن والشياطين لا يمكن رؤيتهم.

- لكن، أنا أراه.

- استغفري الله واذكريه دائما.

- أستغفر الله العظيم، والسحر يا عم الشيخ؟

- تعلم السحر وتعليمه وممارسته حرام يا ابنتي.

- أنا أقصد هل السحر موجود؟

- بالطبع، السحر مذكور في القرآن، قال تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ

فِتْنَةٌ ...}[البقرة:١٠٢]

و ربنا ذكر ضرره حين قال قوله تعالى: {...فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا

يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ...}[البقرة:١٠٢]

وقال أيضا: {...وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ ...} [البقرة:١٠٢]

هدأت (زهرة) قائلة:

- إلا بإذن الله.

قال الشيخ العجوز:

-نعم، لا بد أن تعلمي أن السحر علم ضار ليس فيه منفعة لا دنيا ولا دين: {... وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ...}[البقرة:١٠٢]

أسرعت (زهرة) قائلة:

-أعلم ذلك، كل ما أود معرفته، كيف أبطل مفعول سحر ما؟

الشيخ:

- الله أعلم، وفوق كل ذي علم عليم، استغفري الله كثيرا وكوني معه، قال تعالى: {... حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة:١١٨]

مسحت (زهرة) دموعها قائلة: صدق الله العظيم.

انغمست (زهرة) في العبادة والدعاء، طالبة التوبة والنجاة، وراقبت (سفرجل) عن كثب، راقبت حركاتها وأفعالها، ولعبها مع الصغيرة (شادية)، لكنها لم تنل ما يريح العقل ويطمئن القلب، لم تر سوى امرأة عجوز بلهاء تجري وراء الفراشات في الحديقة، تلعب مع الصغيرة بحب واهتمام، صارحت أمها بما رأته، أخبرتها أن ما يدور في عقلها مجرد هواجس، (فوزية) تملكها الخور لا تدري ماذا حدث لها، هي لم تقترب من الستين من عمرها، ولكن هيئتها تنطق بالثمانين، أيقنت أنه أصابتها لعنة ما، حتى إنها قالت لـــ (زهرة) يوما ما، بصوت ضعيف مكلوم:

-هل ما أصابني هو حلم من أحلامك يا (زهرة)؟

- لا.

-إذن كما قلت لك سلفا، تلك العجوز الشمطاء الوقحة هي السبب.

-لا لم تفعل شيئا، هي مجرد بلهاء تجري عارجة في الحديقة مثل شادية.

-لقد سمعتنا تلك الليلة، صدقيني، هي تعلم بمراقبتك لها.

-كَفَى، لقد سئمت تلك الهواجس يا أمي، لقد هدأت دوامة

الأحلام، لعل الله رحمنا من ذلك البلاء، وتقبل توبتي، كَفَى بالله عليكِ.

تنهدت (فوزية)، وقالت:

-أريد أن يرحمني الله من أفكار عقلي وخوفي، النسيان نعمة ورحمة لا شك في ذلك، أتمنى من الله أن ينعم عليَّ بالرحمة والنسيان.

بكت (فوزية) بصوت عال متألم، اقتربت منها (زهرة) مشفقة، شعرت بأن السخط في قلبها قد تبدد أخيرا، شعرت بالحب والشفقة لأول مرة منذ رحيل (كوثر)، ومالت على أمها تواسيها.

توقفت (زهرة) عن مراقبة (سفرجل)، عزمت على ألا تقلق عقلها بمهب الريح قبل أوانها، استسلمت لسلام وجدانها الروحاني، لقد كانت مصممة على النسيان، فلا يوجد سبيل للحياة غيره.

ثم أقبل ليل هادئ من ليال الصيف الحالمة، استيقظت (زهرة) من نومها، فدرجة الحرارة المرتفعة جعلتها تشعر بالظمأ، كان البدر متألقا في السماء وراء البيوت القديمة، تطلعت إليه بشغف من وراء زجاج شرفتها، ثم خرجت من غرفتها حافية القدمين كعادتها، توجهت نحو السلم، لم تر (سفرجل) نائمة على أريكتها المتهالكة،

وقفت أعلى السلم مندهشة، ونظرت يمينا ويسارا، وجدت (سفرجل) واقفة أمام الصورة التذكارية لجدتها المعلقة بجوار باب حجرة الصالون المغلق، تتكلم، ما هذا؟ (سفرجل) تتكلم؟ هل ما تسمعه حقيقة؟ هل ما تراه بالفعل تراه أم هي ما زالت نائمة تحلم؟ حاولت أن تختبئ، ولكنها سمعت (سفرجل) تتكلم بلغة غير مفهومة سريعة، ثم نظرت (سفرجل) نحوها فجأة، فتجمدت (زهرة) في مكانها من هول ما رأته، فقد كان لعيني (سفرجل) لون مخيف مثل عيني الهيكل الأسود الذي تراه، جرت (زهرة) إلى غرفتها خائفة مرتعشة.

لم يغلبها النوم، ظلت مستيقظة قلقة، غشيتها أفكار عديدة لم تألفها من قبل فضاقت بها، ثم عزمت النية، واتجهت نحو حجرة نوم (فوزية) حافية القدمين، بخطوات خفيفة حتى لا تشعر بها (سفرجل)، دخلت حجرة (فوزية)، وأغلقت الباب وراءها بهدوء، ثم اقتربت من فراشها الضخم المصنوع من الخشب الثمين بأعمدته الأربعة وزخارفه المنقوشة بدقة، وستائره القرمزية الحمراء، وكان هناك شمعتان كبيرتان مركبتين في شمعدانين من الفضة الخالصة بجوار الفراش، وضوؤهما المرتعش مُلقَى فوق وجه (فوزية) الضعيف العجوز، قالت (زهرة) بصوت هامس:

-أمي، أمي.

استيقظت (فوزية) متأوهة بصوت ضعيف:

- ماذا؟ ماذا تريدين يا (زهرة)؟

-قومي، سوف نترك البيت الآن؟

تصايحت الديكة إيذانا بطلائع النور، اندهشت (فوزية)، وقامت ببطء متسائلة:

-نترك البيت؟ والآن؟ ماذا حدث؟

- لا يوجد وقت كاف، سوف أجمع الأشياء المهمة، ونأخذ (شادية) ونرحل سريعا.

- و(سفرجل)؟

- لا تشغلي بالك بها.

-ماذا حدث؟ أخبريني، هل ظهر لك ذلك الملعون ثانية؟

- لا يوجد وقت كاف، قومي.

-يا ابنتي، أنا لا أستطيع أن أتحرك بسرعة، ما سر تلك العجلة؟ خذي قسطا كافيا من النوم، ثم نجمع أشياءنا بهدوء ونرحل.

-لا، سوف نهرب الآن، نهرب من (سفرجل) والبيت.

-ماذا؟ (سفرجل)؟ الآن صدقتِني، ماذا فعلت بنت الأفاعي؟

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد قلت لك مرارا، ليس هذا هو الوقت المناسب لسرد التفاصيل، أسرعي.

-إذن خذي بيدي.

حاولت (فوزية) أن تقف، ثم سمعت (زهرة) صوتا، فتوقفت وقالت بصوت هامس:

-سمعتِ هذا الصوت؟

-لا، لقد ضعف سمعي أيضا و...

قاطعتها (زهرة) لتتوقف عن الحديث:

- ششششش.

تركت (زهرة) يد (فوزية)، واتجهت بخطوات بطيئة نحو النافذة، لقد ظهر الخيط الأبيض في السماء ليبدد ظلمة الليل ووحشته، كان المكان رطبا يكتنفه ضباب خفيف، تعالت أصوات الديكة بلا توقف، أطلت (زهرة) من النافذة خائفة مترددة، ثم تجمدت في مكانها، فقد رأت (سفرجل) تسقي زرع الحديقة لأول

مرة منذ أمد بعيد، وفجأة نظرت نحوها (سفرجل)، وكأنها تعلم أن (زهرة) تراقبها من شرفة حجرة (فوزية)، ارتبكت (زهرة)، وابتسمت لها (سفرجل) ابتسامة بلهاء كعادتها، دخلت (زهرة) مسرعة، وقالت بصوت غاضب:

- تلك الشمطاء لا تنام؟

جلست (فوزية) على حافة الفراش متعبة، وقالت:

- ماذا حدث يا (زهرة)؟

تنهدت (زهرة)، وجلست بجوار أمها، ثم قالت بصوت ضعيف مهموم:

- لا شيء، ليفعل الله ما يريد.

-هل سنرحل؟

-لا، ليس هذا هو الوقت المناسب للرحيل، اُخلدي إلى النوم الآن.

قامت (زهرة)، وساعدت (فوزية) لتمد ساقيها في فراشها لتخلد إلى النوم.

في الصباح، جاءت (نوال) لزيارة (زهرة)، وقفت بجوار باب

حجرة الصالون المغلق تتأمل الصور التذكارية المعلقة على الحائط، وقد بدت عليها الدهشة، اقتربت منها (زهرة) بوجهها الباسم:

-نوال، أهلا بك، أنا سعيدة جدًا برؤيتك.

قبلتها (نوال)، وقالت بصوت حزين:

- لقد جئت لك كثيرا وحاولت مقابلتك ولكن...

قاطعتها (زهرة):

-أعلم، أنا آسفة، كانت أياما صعبة.

هزت (نوال) رأسها، ثم ألقت نظرة سريعة على السلم الخشبي ودرجاته المكسورة قائلة بصوت حزين:

- الله يرحمها ويصبركم.

ساد الصمت للحظات، ثم أسرعت (نوال) متسائلة:

- ماذا حدث لصورة (جدتك) وصورة (كوثر)؟

و أشارت نحو الصور. اقتربت (زهرة) وأمعنت النظر، فأصاب قلبها الخوف؛ لقد تبددت ملامح الجدة (أم فوزية) و(كوثر)، كما ظهرت بقعة سوداء وكأنها ظل لشيء ما يقف وراء كل منهما في الصور.

نظرت (زهرة) مسرعة نحو (سفرجل)، وهي تجري عارجة وراء (شادية) في الحديقة، ثم أجابت على سؤال (نوال) متمتمة بصوت ضعيف:

-لا أدري، تلك الصور قديمة، ربما الزمن قام بإتلافها.

ثم نادت قائلة:

- شادية، كُفِّي عن اللعب، شمس الصيف حامية.

فأجابت الصغيرة:

-لا أكترث.

زاد غضب (زهرة):

-قلتُ كُفِّي، تعالي هنا يا (سفرجل).

اقتربت (سفرجل)، ودخلت البهو في هدوء، ودخلت وراءها (شادية) غاضبة. اقتربت (نوال) من (زهرة) مواسية:

- (زهرة)، لابد للإنسان من إنسان آخر يفضي إليه بهمومه، ويتحدث معه، ليس هناك أقتل للمرء من تلك الوحدة وذلك الانطواء.

ضحكت (زهرة) كثيرا، واندهشت (نوال) من رد فعلها،

فأسرعت (زهرة) قائلة:

-آسفة، لم أقصد ذلك، ولكن صدقيني، هناك عدة أشياء قد تقتل المرء أشد قسوة من العزلة والانطواء، لقد رأيت في حياتي ما يكفيني، أخبريني: هل ظهرت نتيجة التوجيهية؟

أجابت (نوال) آسفة:

-نعم.

- وماذا كانت نتيجتك؟

-الحمد لله نجحت، وسوف ألتحق بالحقوق.

-مبارك، مبارك.

-لا تحزني يا (زهرة)، أنتِ ذكية ونجيبة، سوف تدخلين الامتحان العام القادم و...

- أنا لست بحزينة، أنا سعيدة جدا من أجلك.

غادرت (نوال) البيت، واتجهت (زهرة) إلى غرفة (أمها) وهي راقدة في فراشها، سألتها:

- كيف عرفت جدتي (سفرجل)؟

-لا أعرف التفاصيل، كل ما أعرفه أنها كانت خادمة جدتي

وأمي، منذ نعومة أظافري وأنا أراها في بيتنا، تساعد أمي وتخدمها، دائما على هيئتها تلك؛ عجوز شمطاء. أخبريني: ماذا حدث بالأمس؟

-لقد رأيت (سفرجل) واقفة بجوار الصور التذكارية لجدتي، تتكلم بلغة غير مفهومة، ثم نظرتْ نحوي فجأة، وكانت عيناها مخيفة للغاية.

فزعت (فوزية) قائلة:

-تتكلم؟

-نعم.

-قد يكون صوت أنينها.

-لا، لم يكن أنينا، أقسم لك كانت تتكلم، ولكن بكلمات غير مفهومة.

ساد الصمت للحظات، ثم قالت (فوزية) بصوت ضعيف مكلوم هامس:

- ارحلي يا (زهرة)، خذي (شادية) وارحلي الليلة، سوف أطلب من (سفرجل) أن تنام على تلك الأريكة في حجرتي، جمِّعي

أشياءك وارحلي.

-ماذا؟ ونتركك هنا مع تلك العجوز؟

- مصيرنا واحد.

-لن أتركك هنا بمفردك معها.

- تكلمي بصوت هامس حتى لا تسمعك بنت الأفاعي. أنا ضعيفة لا أستطيع الحراك، اهربي من ذلك الشقاء، وأنقذي (شادية).

- وأنتِ؟

-لا تهتمي، فبجواري (فتحي).

-وماذا سيفعل عم (فتحي)؟

-سيهتم لحالي، ارحلي وسأدبر الأمر وكأنك هجرتِ البيت دون علمي، لن تسعى وراءكما؛ لأنني هنا. لقد فقدت قوتي ولكنني لم أفقد عقلي، أعلم جيدا كيف سأدبر حالي، ارحلي.

صمتت (زهرة) وشرد عقلها، أسرعت (فوزية):

- ارحلي. معي مال يكفي لعدة أشهر، خذيه وارحلي، أعلم أنك ذكية وجريئة، سوف تصلحين ما أفسدتُه، ارحلي.

-لا، لن أتركك هكذا مع شر (سفرجل)، كنت أفكر في شيء ما، أعلم أن جدتي قد قامت ببناء المعمل منذ أمد بعيد قبل بناء الفرن، لابد أن أدخله؛ قد يكون هناك شيء ما يبعد الشيطان، ويفك اللعنة ويرفع البلاء ويُنهي الشقاء.

ثم ساد الصمت للحظات، وأسرعت (زهرة) مواسية أمها، قائلة:

- اليوم يبدو عليك تحسن ظاهر يا أمي.

-حقا؟

- نعم، أنا واثقة أنك استفدت من الخروج إلى الهواء الطلق في الشرفة.

- لن أتحسن، هذا هو قدري.

-ليتك تنهضين وتغادرين الفراش كل صباح كما فعلت اليوم.

- لا يهمني ما لحق بى، يكفيني خوفك عليَّ.

نظرت إليها (زهرة) نظرة تنم عن الشفقة والحسرة، وساد الصمت.

أرسلت (فوزية) (سفرجل) مع (شادية) لشراء بعض

المستلزمات، فتحت (زهرة) باب المعمل، فندَّ عنه صرير هائل، جعلها تشعر بالرهبة والاضطراب، ثم دخلت بخطوات بطيئة مترددة، ماسكة بيدها المصباح، وضعته جانبا على المنضدة، ثم اقتربت من اللوح الخشبي بجوار الفرن الصغير، ومدت يدها خلفه فلم تجد شيئا، ولكنها لم تيأس ظلت متمسكة بأمل قد يهدهد الهم، وبدأت في البحث مرة أخرى وراء الفرن الصغير وتحت الحوض وأسفل المنضدة، حتى إنها بدأت تبحث عن أي جزء غير مألوف في أرضية المعمل، فربما يكون السر مدفونا هنا، ثم فترت حماستها فجأة، وأخذت المصباح، وغادرت المعمل في هدوء.

تنهدت (فوزية)، قائلة بصوت يائس حزين:

- أنا لا أفهم لماذا تضيعين وقتك في البحث عن سراب؟ وقد يكون السر (سفرجل) نفسها، الشر سكن البيت منذ أمد ليس بقصير، ربما لا يمكنك القضاء عليه، كنت أظن أن إشعال النار في الزكيبة الملعونة نهاية الشر، ولكن يا ابنتي لا تلبي نداء العاطفة، وخذي المال وارحلي.

لم ترحل (زهرة)، ظلت تبحث عن شيء تجهله، تراقب (سفرجل) عن كثب لعلها تصل إلى الأمل المنشود، لعلها تتأكد مما رأته وسمعته، لكن ازداد الأمر سوءا بعد إصابة (شادية) بكسر

في ساقها بعد أن اعتلت شجرة ذابلة، كسر أحد أغصانها فسقطت الصغيرة، وأصبحت طريحة الفراش، وأجلت (زهرة) فكرة الرحيل ومغادرة البيت حتى يتم شفاء الصغيرة، (فوزية) كانت متأكدة أن لسفرجل دور في ذلك الحادث.

اقتحم الزوار الحارة ثانية قاصدين بيت (أم فوزية)، وبالرغم أن (زهرة) رفضت مقابلتهم عدة مرات، إلا أن عددهم زاد سعيا وراء أحلامهم، ضاق أهل الحارة من زوار بيت (أم فوزية)، وكثرت الحكايات والأقاويل، فلا يوجد الآن من يصد ألسنتهم الساخطة بعد سجن (شحاتة)، وأصاب الجميع الدهشة كيف لم تتعظ تلك العجوز من مصائب الأيام؟ وضاقت (فوزية) ذرعا، فخرجت من جحرها الساكن معلنة لجميع الزوار أنها توقفت عن ممارسة السحر، ولكن هيهات.

كل يوم يجتمع الزوار، ويقدّمون لها الهدايا والمال حتى ترجع عن قرارها هذا، جلست (زهرة) بجوار (أمها) على حافة الفراش، قائلة بصوت هامس:

- سفرجل هي السبب في توافد الزوار إلى البيت.

-لا، كيف ستجلب تلك البلهاء الزوار إلى بيتنا؟ لا أعتقد هذا.

-قلت لك ليست بلهاء، لقد سمعتها تتكلم، ورأيت نظراتها المخيفة بالطبع هي، مَن غيرها؟ لكن لماذا الآن؟

-ربما لأنه لم يعد لدينا المال الكافي.

-أتظن أننا سنرفع راية الاستسلام، ونعود إلى طريق الشيطان؟

-حتى وإن كانت لدينا الرغبة، كيف وقد قمت بالتخلص من البودرة؟

سَرَى صمت في الحجرة لثوانٍ، ثم لمعت عين (زهرة) فجأة، بعد أن طرقت رأسَها فكرةٌ قائلة بصوت هادئ:

- سنحقق مرادها.

نظرت لها (فوزية) مندهشة، وقالت متسائلة:

- ماذا؟

- نشكو من ضيق الحال، والندم على إشعال النار في الزكيبة ولكن بطريقة ذكية لا تبعث بقلبها الشك، فيخرج الشر من مخبئه.

أسرعت (فوزية):

- لا، ربما يخرج الشر ولا نستطيع ردعه، لقد قلت لك مرارا بعد تماثل (شادية) للشفاء، ارحلا، لا يمكنكما البقاء هنا.

ثم شردت قليلا، وقالت:

- أو...

- أو ماذا؟

-أو نتخلص منها بحلم من أحلامك؟

- ماذا؟ هل تطلبين مني قتلها؟

- هي تستحق الموت.

بدا القلق جليا على وجه (زهرة)، ثم أسرعت قائلة:

- هل كان (الدسوقي) يستحق الموت أيضا؟

-تلك الملعونة هي التي قامت بقتله.

- ربما تحدثتِ معها مثلما تفعلين معي الآن.

- لا، لم أفعل ذلك، أقسم لك، انسي ما قلته، أنا فقط أحاول البحث عن طريق للخلاص والنجاة.

-عموما أنا لا أستطيع المساعدة، لقد هدأت دوامة الأحلام.

-ماذا؟ هل تخلصتِ من تلك اللعنة؟

-لا أدري، ربما.

-وكيف انتهت الأحلام؟

- قلت لك لا أدري، لقد توقفتْ.

-غريبة!!

أشرقت شمس الصيف الحامية، والجو أصبح راكدا، لا توجد نسمة هواء تنعش الأنفس المرورة، اتجهت (زهرة) نحو حجرة (شادية) للاطمئنان عليها، فوجدتها راقدة في فراشها، مادة ساقها المثبتة في جبيرة من الجبس، ترسم في هدوء، اقتربت منها أكثر، رأتها ترسم تمساحا صغيرا معلقا فوق باب وبأحشائه رسمت كرة سوداء كبيرة، سألتها (زهرة) مسرعة:

- ما هذا؟ هل هذا هو التمساح المحنط المعلق فوق باب حجرة الصالون؟

ابتسمت لها (شادية) قائلة في هدوء:

- أجل.

وضعت (زهرة) يدها على شعر (شادية) برفق قائلة:

- وما تلك الكرة السوداء؟

ابتسمت الصغيرة، وظلت تحك بقلمها الورقة البيضاء في

شغف، بدا التوتر على وجه (زهرة) فسألتها ثانية بصوت رحيم:

- ما تلك الكرة يا صغيرتي؟

نظرت لها (شادية) ثم قالت بصوت هامس:

- لا أدري، لقد رأيتها بيد (سفرجل) تضعها بداخل التمساح المحنط.

أمسكت (زهرة) الورقة البيضاء، وتأملتها بعض الوقت ثم وضعتها جانبا قائلة:

- حان الوقت لتأخذي قسطا من النوم والراحة.

امتعضت الصغيرة قائلة:

- أنا لست بناعسة، لا أود أن أنام.

- لابد من وقت للراحة، أغمضي عينيك يا صغيرتي.

صرخت الطفلة باكية:

- لا، لقد كرهت النوم وسئمت الأحلام، لقد حلمت بتسلقي تلك الشجرة، وكسرت أغصانها، وها أنا الآن راقدة في سريرى، لا أستطيع اللعب والركض، أنا لا أحب النوم، ولا الأحلام.

كتمت (زهرة) صرختها مفزوعة، ثم سألتها:

- ماذا؟ هل تتحقق أحلامك؟

-نعم.

-منذ متى؟

- منذ فترة من الوقت.

-كيف؟ كيف حدث ذلك؟ هل حدث ذلك قبل رحيل (كوثر)؟

- ما كل تلك الأسئلة؟ أعطيني الورقة، أريد أن أرسم.

أعطتها (زهرة) الورقة البيضاء، وتركتها في هدوء والأفكار تتصارع داخل رأسها، تسأل ذاتها:

- ماذا يوجد بداخل ذلك التمساح اللعين؟ وكيف تحققت أحلام (شادية)؟ هل أصابتها اللعنة أيضا؟ وكيف؟

جلست (زهرة) بجوار أمها على حافة الفراش، ساد الصمت للحظات ثم قالت (فوزية) بصوت يائس حزين:

-وما العمل؟

-لا أدري، عقلي لا يستطيع استيعاب كل تلك الأحداث؟

-لابد أن تسألي (شادية): هل أكلت الكعك؟ هل دخلت

المعمل؟ أظنها (سفرجل)، تلك الشيطانه التي قامت بذلك.

أسرعت (زهرة):

- ربما، لقد تبلد عقلي، لا أستطيع التفكير.

-صفي ذهنك، التوتر يذهب العقل ولا يجلب سوى الشقاء، اهدئي لكي نفهم ما يحدث ونعثر على حل.

- تُرى، ما تلك الكرة السوداء التي قامت (شادية) برسمها بجوف التمساح المحنط؟

-لا أدري، لقد قلت لك يا (زهرة) إنني رأيتها تقوم بتنظيف التمساح المحنط بشكل مبالغ فيه، وعندما رأتني بدا عليها الارتباك جليا.

ساد الصمت لعدة لحظات، شعرت (زهرة) أن أمها هادئة وشاردة بعض الشيء كأنها تعلم شيئا ما وتخفيه، فأسرعت (زهرة) متسائلة:

-هل أخبرتِني بالحكاية كاملة أم يوجد شيء أجهله؟

تنهدت الأم والتزمت الصمت، ظهر القلق على وجه (زهرة):

- ما الأمر، يا أمي؟

-أشعر أن تلك البودرة كانت وَهْما.

اندهشت (زهرة) قائلة:

- وَهْم؟

-نعم، مجرد وهم، والدليل أن أحلامك قد توقفت.

-لا أظن أنها وهم، بعد إشعال النار في الزكيبة تلاشت الرسومات الغريبة المحفورة على خشب السلم.

-لا، لقد تلاشت الرسومات بعد رحيل كوثر قبل إشعال النيران بالزكيبة.

اندهشت (زهرة)، قائلة بصوت مبحوح:

-ماذا؟

قالت (فوزية):

- السِّرُّ كله بيد تلك الخبيثة، هي مَن تلعب بنا كعرائس مربوطة بأناملها تحركنا كيفما تشاء.

-ربما، لكن ماذا ستربح من كل هذا؟

صمتت (فوزية) لعدة لحظات، ثم قالت بصوت متردد:

-قد يكون انتقاما.

-انتقام؟ مِمَّنْ تنتقم؟ وكيف تنتقم تلك البلهاء العجوز؟

- لا أدري، كنت أخشى أن أبوح لك بالحقيقة كاملة، فيسكن قلبك الشك أو الخوف، حاولت جاهدة أن أطرد تلك الأفكار من عقلي، لكن يبدو أن ظني كان صحيحا، عندما رأيتها تنظر إليك تلك النظرة، وعندما تحدثتِ معي عن كلامها غير المألوف، ونظراتها المخيفة، تأكدت من ظنوني.

-أنا لا أفهم شيئا.

-قالت لي أمي إن جدتي كانت تُخرج الشياطين والجن من أجساد الممسوسين، وتقوم بإحراقهم بمساعدة (سفرجل).

- كيف؟

- لا أدري، كانت طريقتها غريبة، (سفرجل) كانت صبية صغيرة يتيمة خرساء ومتأخرة ذهنيا، كانت تعمل خادمة لدى جدتي، قالت لي أمي إن جدتي كانت تخرج الشياطين من أجساد الممسوسين بمساعدتها، أخبرتني أن خروج الجن من أحدهم يتطلب وجود جسد آخر يسكن به، ولذلك استغلت (سفرجل) لجلسات طرد الشياطين؛ ظنا منها أن الجن لا يستطيع أن يلحق بها

الأذى، فهي كالطفل الصغير الذي لا يعي ولا يتكلم.

أصاب (زهرة) الذعر والضيق قائلة:

- يا ربي، كيف قامت جدتك بتلك الأفعال الشيطانية؟ كيف ألحقت بها الأذى لهذه الدرجة؟ كلامك هذا يعني أنها جسد يسكنه الجن؟ كيف تركتِها تلعب وتلهو مع (شادية)؟ كيف تركتِها تقطن البيت معنا وتلحق الأذى بنا؟

-(سفرجل) عاشت معنا منذ نعومة أظافري، كنت أراها بلهاء، لا تعي ولاتفهم فهي مجرد أداة.

-أداة؟ تلك الأداة تلعب بك منذ البداية، هي الشر نفسه، هي الشيطان لا شك في ذلك، ما العمل الآن؟

- لقد قلت لك مرارا لا سبيل سوى الفرار، خذي (شادية) وارحلي.

مرت عدة أسابيع، اقترب (فتحي) من (فوزية) وهي جالسة أسفل شجرة الجميز، تحميها من شمس الصيف الحامية، بدا وجهها شاحبا ضعيفا، منديل رأسها معقود بإهمال ليسمح لخصلات شعرها البيضاء أن تبرز فوق حاجبيها الكثيفين بصورة تستحق الرثاء، لم يبق لها من جمالها الفاتن القديم سوى مسحة توارت تحت

قناع الخور، تائهة في عالم آخر وكأنها فقدت عقلها للأبد، وقف (فتحي) يتفحص هيئتها متحسرا، لقد نبذتها الحياة بطريقة قاسية تُدمي القلب وتُبكي العين، جلس بجوارها على الأرض قائلا:

- كيف حالك يا (فوزية)؟

نظرت له مبتسمة، ومدت يدها بهدوء تداعب بأناملها الضعيفة لحيته الصغيره البيضاء، لقد فقدتِ النطق والعقل، أمسك (فتحي) بيدها وقبّلها بحب ورفق، حاول أن يستمسك بمظهره الرزين دون جدوى، فاندفعت الدموع إلى مآقيه، وأجهش في البكاء، مسحت بيدها الضعيفة دموعه، وابتسمت له، ثم تاهت في عالمها الخاص، انبعثت من أعماقه زفرة حزينه، وقال:

- سأظل دائما بجوارك، المرفأ والمأوى كما قلتِ لي سابقا، لا تخشي شيئا، أنا هنا من أجلك، لن ينضب الحب، وبرحمة الله وكرمه لن يضيق الرزق.

ثم وقف وابتعد عنها بخطوات هادئة بطيئة، ثم توقف مرة أخرى والتفت نحوها بنظرة حزينة والتفت إلى البيت، لا تزال ذيول الحياة متشبثة به رغم رحيل (زهرة) و(شادية)، وابتعد عنها بخطوات بطيئة حزينة، ظلت (فوزية) تتبعه بنظراتها وترقرقت

الدموع بعينيها قائلة بصوت هامس لنفسها:

- يعز عليَّ آلامك وأحزانك يا (فتحي)، لكن ما باليد حيلة.

ثم نظرت إلى شرفة حجرتها، وجدت (سفرجل) واقفة بجوار الشرفة، ابتسمت لها (فوزية) ابتسامة بلهاء، أما (سفرجل) ظلت متجمدة الملامح تراقبها في هدوء.

سكنت (زهرة) مع أختها (شادية) حجرة في بيت قديم بدرب البرابرة، وعملت بمحلات (داوود عدس) في شارع عماد الدين، قامت بقص شعرها وصبغه، وحكت لصاحب البيت قصة وهمية عنهما، أحبها الجيران لدماثة أخلاقها ورِقَّة حديثها، ولين قلبها، وحبها واهتمامها بأختها الصغرى (شادية) التي كانت تتركها عند الجيران ساعات العمل، حاولت أن تبذل جهدا في تجاهل ما حدث، ولكنه كان جهدا يائسا، وفي ساعة متأخرة من ليلة قمرية كان كل شيء تحت السماء الصافية هادئا، تسللت (زهرة) وصعدت إلى سطح بيتهما الجديد حاملة التمساح المحنط الصغير بعد أن تأكدت بأنه لا يوجد هناك من يترقبها أو يتبع خطواتها.

وضعت التمساح على الأرض، وجلست بجواره لعدة دقائق شاردة الذهن متعبة، ثم مدت يدها المرتجفة بداخله، وجدت صرة

صغيرة من القماش، قامت بفتحها فوجدت بداخلها رمادا، تنهدت (زهرة) حائرة؛ فهي ما زالت تلهث وراء الألغاز دون جدوى. فجأة تطاير الرماد في السماء بعيدا، ثم وجدت بقايا خيش ونحوه، شردت (زهرة) قليلا ثم قالت لنفسها:

- هذا ما تبقى بعد احتراق الزكيبة، لقد حفظته تلك الشمطاء داخل التمساح.

ظلت (زهرة) في مكانها ساكنة هادئة، ثم شعرت بالنسيم يداعب وجهها، لقد دق باب قلبها أمانٌ لم تعهده من قبل.

استرسل (فتحي) قائلا للوقا:

- في يوم، استيقظت (فوزية) وصرخت، لقد تركت (زهرة) البيت ورحلت، أخذت معها الصغيرة (شادية)، بحث أهل الحارة عنهما كثيرا دون جدوى، بعد فترة فقدت (فوزية) النطق والعقل، رحلت بعقلها إلى عالم آخر، عالمها الخاص وكأن مسها الجن والعياذ بالله، هي الآن لا تفارق البيت.

و(يوسف) رحل إلى (الكوربة) بعد رحيل (زهرة)، لم يكن مجنونا ولم يكن أيضا مثل سائر العقلاء، أصبح شيئا بين هذا وذاك، تخيل يا خواجة؟ لقد أخبرني بأشياء غريبة قبل رحيله؟

اعتدل (لوقا) في جلسته مهتما متسائلا:

- ماذا؟

أخذ (فتحي) النفس الأخير من سيجارته، ثم قال:

- أخبرني أن (زهرة) كانت مخاويةً جِنًّا يحقق لها كلَّ أحلامها، وأن غيرتها من أختها هي السبب الرئيس وراء حادث (كوثر) المشؤوم، لقد أشقاه العشق كما أشقاني، ولكن الحزن أخذ عقله أو قد يكون في كلامه جزءٌ من حقيقة نجهلها، فمن يصدق أن (يوسف) قد يعشق (زهرة) إلى حد الجنون هكذا؟ ولماذا هربت (زهرة) من البيت؟

وفي يوم ما، قال لي أحد الجيران إنه رأى (زهرة) دخلت البيت خِلسة، وبعد عدة دقائق خرجت من البيت مسرعة حاملة التمساح المحنط المعلق فوق باب حجرة الصالون، خرجت دون أن يشعر بها أحد، لقد راقبها من شرفة منزله، جاء لي القهوة مسرعا وسرد لي ما حدث، لم أصدقه في بداية الأمر، ولكن في صباح اليوم التالي سمعت بكاء (سفرجل) وصُراخها، وعندما ذهبت إلى البيت أشارت لي فرأيت مكان التمساح خاليا.

اندهش (لوقا)، وأسرع متسائلا:

– ولماذا أخذت التمساح المحنط؟

ضحك (فتحي) وقال:

– لا أحد يدري، هذا هو بيت أم فوزية، دائما نسمع عنه كل ما هو غريب وعجيب، ثم ظهرت الشوطة للمرة الثالثة، وكانت البداية بقرية (الكوربة) بمركز فاقوس الشرقية، رحل الكثير من الرجال والنساء والصبية، ووصل لي الخبر المشؤوم برحيل (يوسف) مع ضحايا الشوطة.

تنهد (لوقا) متحسرا؛ فما زال كل شيء مبهما غامضا، نظر له (فتحي) آسفا:

– أنا لا أعرف الحقيقة كاملة، ولا أحد هنا يدرك الحقيقة كاملة، في المساء يجتمع زبائن المقهى، ويلتفون حول المنشد ماسكا ربابته يشدو حكاية بيت (أم فوزية)، تترامى عليه تحيات الاستحسان، أنشودته لا تخلو من الخيال لجذب انتباه السامعين والفوز بإعجاب صاحب المقهى، وفي بعض الأحيان يأتي إلى حارتنا بعض الجيران من الحارات المجاورة لسماع صوته العذب وخياله الساحر، وبالرغم من أنني كنت قريبا من أهل البيت إلا أنني في بعض الأوقات أسأل حالي: هل ما يشدو به الشاعر حقيقة أجهلها أم خيال؟

أسرع (لوقا) متسائلا:

- لكنني سمعت من بعض الناس أنها كانت تمارس السحر وتعمل به.

- لا أدري، مجرد أقاويل، (فوزية) التي أعرفها لا يمكن أن تمارس السحر، هي كانت تجيد قراءة الفنجان، أما السحر، ربما، أمها، لكن هي لا.

- ولِمَ لا؟ قد يكون السحر هو سبب توافد الزوار.

تنهد (فتحي) وصمت قليلا، ثم التفت إلى بيت (أم فوزية) قائلا:

- ربما، لا أحد يدري ماذا حدث بداخل ذلك البيت الملعون. بعد رحيل (كوثر) وشجار (شحاتة) كلُّ شيء تبدل حاله، وظل بيت (أم فوزية) على حاله بِسِرِّه وشَرِّه.